الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان-

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

سجل تحت رقم
31
تاريخ
الرقم

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة و الأسلوبية الموسومة بـ:

النظم في القصة القرآنية
قصة آدم عليه السلام نموذجا

تحت إشراف: د. رمضان كريب

من إعداد الطالبة: فائزة رازي

أعضاء لجنة المناقشة:

د. محمد طول	رئيسا
د. رمضان كريب	مشرفا و مقررا
د. شريفي عبد اللطيف	عضوا مناقشا
د. زمري محمد	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1427/1426 هـ - 2006/2005 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

هذا جهد متواضع في ميدان البحث العلمي، لم أتريث في إهدائه

إلى الذين يمثلون الكثير في حياتي

إلى من تسكن قلبي و روحي و كل الكلام عنها لا يكفي..... أمي الحبيبة

إلى من أنار لي الطريق و سار معي جنبا إلى جنب بكل قواه.....أبي العزيز

إلى الذين شاركوني حلو الحياة و مرها.....أختاي الحبيبتان

إلى كل من رافقوني و كانوا لي نعم الصحبة الصالحة

إلى كل من علمني حرفا و مد لي يد المساعدة

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع

فائزة رازي

كلمة شكر

قد تغيب اللغة و تتوارى الكلمات حين يكون عليها رد الجميل لأصحاب الفضائل و لكل يوم ميزته و بعظمة الفعل يعرف الفاعل، و يشرف الأستاذ ما أوصل من علم و توجيه و نصح إلى فؤاد الطالب.

لعلها كلمات لا تكفي للتعبيرعن عميق شكري لأستاذي الفاضل الدكتور "رمضان كريب" الذي طوق عنقي بجليل معاونته و تشجيعه و جميل تقريظه و تقديره و تتبعه المستمر لمراحل هذا البحث حتى جاء على هذه الصورة، و الذي أشيد بتفانيه في العمل و قدرته في البحث العلمي.

و من باب الاعتراف بالجميل كذلك، أتوجه بالشكرالكبيرللدكتور "محمد موسوني" الذي ساعدني كثيرا باقتراحاته في بداية هذا العمل فله مني جزيل الشكر.

كما أتوجه بكل الاحترام و التقديرإلى السادة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تجشموا عناء قراءة و تقويم هذا البحث.

فائزة رازي

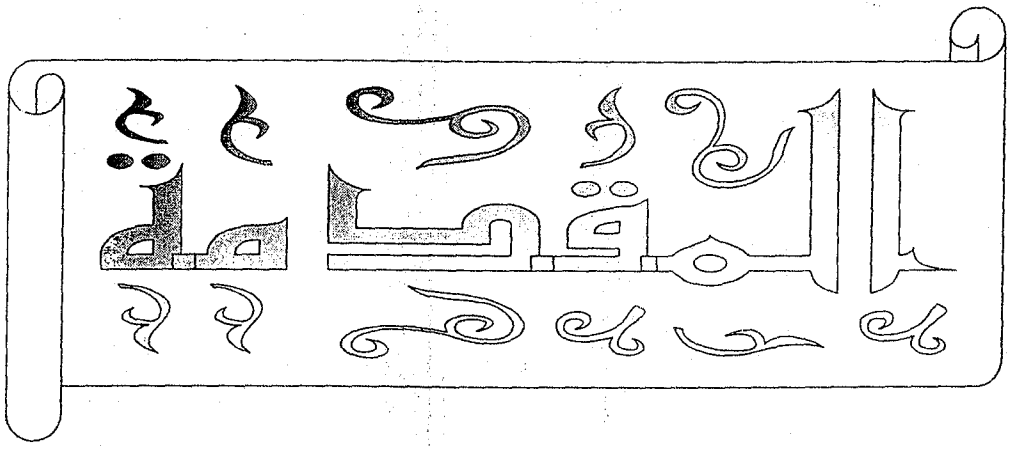
المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام الأتمان الأكملان على الرسول الكريم، أما بعد:

يعد عبد القاهر الجرجاني من أبرز المجددين في مناهج الدراسات الأدبية، و قد استقل عن معاصريه في متابعة نظرية النظم التي أصبح مع مرور الزمن رائدها الأول بلا منازع، فالواقع أن دراسته للنظم و ما يتصل به تقف بكبرياء معادلا قويا لأحدث النظريات اللغوية في العالم الغربي.

إن عبد القاهر الجرجاني يميز بين العلم و اللغة و ما يجب أن يصنعه المتكلم بها كوسيلة أو أداة بحيث ينبغي على المستعمل أن يعرف موطن أو موضع القصد أو الغرض الذي يحدده و يختاره، و ذلك لتحقيق جمال الكلام، و مصدره أن تنتظم الألفاظ على نظام المعاني الذي اقتضاه حكم العقل و منطقه.

و بتعبير آخر، إن عبد القاهر يرى أن ترتيب اللفظ على هذا النحو المعين، إنما يساير الترتيب نفسه الذي انتظمت به المعاني في ذهن المتكلم، و لقد انتظمت هناك وفق ما يقتضيه العقل، فالمنطق العقلي نفسه يدلك على أي المعاني يجب أن تتسق الألفاظ و نتيجة ذلك هي أن المعنى في ترتيب المفردات، و ذلك حين يجيء هذا الترتيب موازيا لترتيب المعاني في الذهن.

و في نظره أن الذي يخلع الجمال على العبارة ليس اللفظ في حد ذاته، ذلك لأنه في حالة انفراده يعتبر عنصرا محايدا لا قبح و لا جمال فيه، لكن الذي يعطيه جمال الأسلوب أو يسلبه منه، هو مسايرته للمعاني التي في الذهن، فبهذا يتوافر للعبارة الجمال و المعنى في آن واحد.

و بتعبير ثان، فإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة و لا من حيث هي كلم مفردة. إن الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها عند ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، و في هذا كله إشارة إلى مصطلح العلاقة و التأليف.

و مهما يكن، فإننا نعيش في عصر أهم سماته العناية باللغة، و معلوم أن هذه اللغة متعددة المظاهر، لذا ارتأيت أن أسهم —و لو بالترر القليل- في العناية بموروثنا الثقافي في الخبرات اللغوية و الدراسات الأدبية، و من ذلك النظريات القيمة التي أسست لجمالية اللغة و لم أجد هناك أفضل و لا أجمل من النص القرآني الكريم، فليس هناك مدونة تغني غناه في هذا المجال، و تأتي بعده أول نظرية تفيد في هذا الاتجاه هي نظرية النظم عند رائدها عبد القاهر الجرجاني.

و لا بد أن أشير بهذا الصدد إلى أني اخترت من القرآن الكريم عنصرا واحدا هو القصة، حيث تعد إحدى المعجزات الخالدة في القرآن الكريم، فهي تكشف كوامن الروعة و مواطن الجمال فيه بما يؤكد حقيقة الإعجاز، و قد كان هذا دافعا لكثير من العلماء للقيام ببحوث و دراسات قيمة و من ذلك نظرية النظم.

لقد تعددت الدراسات التي تسعى لمعرفة الوجه الحقيقي للإعجاز القرآني و تصدر هذه الآراء الرأي القائل أنه معجز بنظمه و تأليفه، و نال هذا الرأي شبه إجماع و قبول و رضا، دون إلغاء الآراء الأخرى و تم الاتفاق على أن القرآن الكريم معجز بنظمه البليغ.

من هذا المنطلق، احتل النظم مكانة رفيعة و خاض فيه الدارسون و انتهى الأمر في ذلك على يد الجرجاني الذي تناول الأمر بطريقة فنية بارعة، حيث أخضعه لقواعد النحو و كانت النتيجة العامة هي ثراء الدراسات البلاغية.

من هنا تجدني أختار من القرآن قصة تجسد هذه المعاني و تتخطاها، ذلك لأن القصة القرآنية من أهدافها فهم النفس البشرية و تحليلها، و خلق الجمال و تهذيب النفس بفضل هذا الجمال. و مجمل القول أنها تجمع بين الصدق و الحقيقة و الجمال الخلاب.

لهذه الأسباب مجتمعة و لما أجده في نفسي من ميل للدراسات القرآنية منذ أن كنت طالبة من قبل اخترت هذا الموضوع، حيث استقر في ذهني الخوض في غمار هذين المجالين النظم من جهة و التمثيل له بالقصة في القرآن الكريم من جهة ثانية، فقمت بمحاولة لإبراز الخطوط الأساسية و القواعد التي يرتكز عليها النظم.

و لكم كان الاتصال بهذا الموضوع شيقا و شاقا، شيقا لأنه يتصل بكلام الله سبحانه و تعالى و شاقا من حيث فهمه و هضمه و استيعابه على طالبة مبتدئة مثلي و ليس هذا من باب تواضعي أو التنصل من المسؤولية، و إنما هو الحق أقوله في نفسي.

على أية حال، فقد حاولت الربط بين النظم و القصة و عملت على وضع اليد على مواضع النظم في نسجها.

و لكي أنجز ذلك كان لا بد من تنظيم العمل و وضع طريقة للسير عليها حيث قسمت البحث كله إلى مدخل و فصلين و خاتمة، جعلت الحديث في المدخل بمثابة تمهيد لفن الكلمة و صلته بالعرب و كيف شكلت الكلمة متنفسا كبيرا في حياتهم، ثم انتقلت إلى ما أحدثه القرآن الكريم من تغيرات حيث فاجأهم بأسلوبه المعجز و انتهيت إلى القصة القرآنية و مدى مساهمتها في الدراسات الأدبية، و تعرضت لمصطلح النظم لغة و اصطلاحا، و كانت النهاية بالتأصيل لفكرة النظم و نشأتها.

و في الفصل الأول الموسوم "بالنظم في القرآن الكريم" تناولت بدايات البحث في إعجاز القرآن الكريم و ركزت بالأساس على الإعجاز بالنظم، حيث ذكرت بعض النماذج لأبرز القدماء الذين سبقوا عبد القاهر الجرجاني لأخصه في النهاية بالحديث و أتعرض لمحتوى نظريته و هيكلها الأساسي.

أما الفصل الثاني فكان تحت عنوان النظم في قصة آدم عليه السلام، و لقد كان مجالا لعرض مواطن النظم في هذه القصة و قد استعنت على ذلك بتحليلات الزمخشري التي تعتبر تمثيلا حقيقيا لما جاء به عبد القاهر الجرجاني. و كان التركيز على التصوير الفني في القصة بغرض الكشف عن فنياته فيها، و بعد ذلك تعرضت لأحداث القصة لأستعرض التشكيل الفني، و وقفت عند رسم الشخصيات و ما جرى بينها من أحداث و حوار شيق و جاد يوحي بمعان متعددة و يعطي دلالات غزيرة و انتهيت من كل ذلك إلى الوقوف عند الجانب النظمي فيها و ما قيل حول ذلك.

أما الخاتمة فقد جاءت عبارة عن جملة من الملاحظات حول كل ما جاء ذكره في هذا الموضوع.

و إذا كان لا بد من الإشارة إلى الصعوبات فأقول إن الموضوع كان دقيقا من جهة يتطلب معرفة كبيرة بجمال الكلام عامة و جمال القرآن خاصة و هو أمر فوق طاقة

باحث يلوج عالم البحث أول مرة، فالموضوع شائك مترامي الأطراف، فقد وجدت نفسي أمام نظرية تحتل الصدارة في الدراسات الأدبية و اللغوية و محط أنظار الباحثين و الدارسين القدماء و المحدثين، كما وجدت نفسي أمام الدراسات اللغوية الحديثة التي تتقاطع و تتلاقى مع أسس و ركائز نظرية النظم عند الجرجاني، و أمام هذا العطاء الضخم و الآراء العميقة حاولت بكل صدق و جد و إخلاص أن أناوش الموضوع حسب الخطة التي رسمتها و حسب قدراتي و إمكانياتي المحدودة، كما حرصت على ألا أغوص كثيرا في التفاصيل حتى لا أطيل أو أزيغ في هذا الميدان الشاسع و العميق.

و مهما يكن، فإن كثرة المراجع و تنوعها التي تناولت الموضوع من عدة جوانب شكلت صعوبة اختيار النصوص و انتقائها، إضافة إلى مضاهاها و تنسيقها و ترتيبها على الوجه الأكمل.

و لا بد أن أشير إلى أنني استعنت على تجاوز بعض هذه العقبات بالاعتماد على جملة من المصادر كدلائل الإعجاز، الخصائص، الكشاف، صفوة التفاسير، العمدة في محاسن الشعر و آدابه، لسان العرب و غيرها بالإضافة إلى مراجع أخرى لها صلة بالموضوع ككتب القصص القرآني و خاصة ما تعلق منها بالنظم.

و قد اصطنعت في إنجاز ذلك منهجا، هذا المنهج كان الطابع الغالب عليه هو الوصف باعتباره أنسب المناهج للتعريف بمفهوم النظم و مفهوم القصة، و كان يتخلل التوصيف وقفات تحليلية في بعض الأحيان لاستقراء النصوص و مضاهاتها.

و مهما يكن، فقد كانت هذه محاولة جادة مني فان نالت رضا أساتذتي الكرام فذلك ما أبتغيه و أتمناه، و قديما قال الشاعر:

على المرء أن يسعى للخير جهده و ليس عليه أن تتم المقاصد

و في الأخير أتوجه بالشكر و أجزله إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على ما تجشموه من تعب في قراءة هذا البحث و تقويمه، كما أتوجه بالتحية و العرفان إلى الأستاذ المشرف على ما بذله معي من الجهد و الإرشاد.

و شكرا و السلام.

تلمسان، في: 11 ربيع الثاني 1427 هـــ

الموافق لـــ 09 ماي 2006 م

فائزة رازي

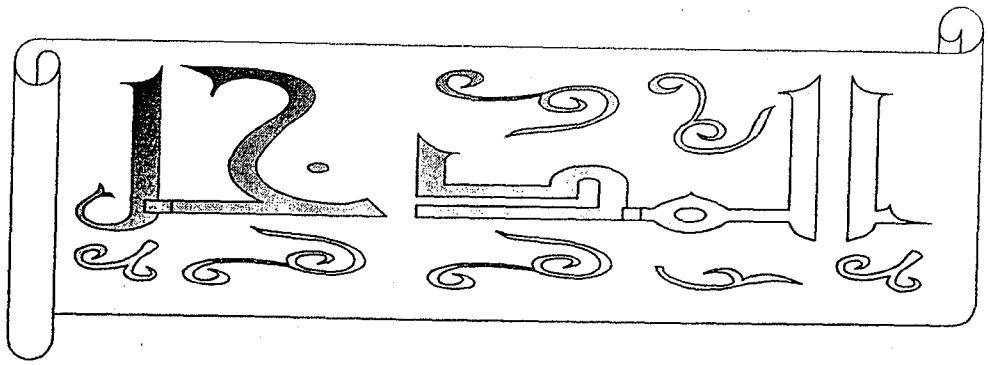

النظـــم في القصـــــة القرآنيـــــة

1- الكلمة أهميتها و تطورها

2- القصة القرآنية مفهومها و أهميتها

3- مفهوم النظم لغة و اصطلاحا

4- فكرة النظم أصولها و نشاتها

- الكلمـــة أهميتهـــا و تطورهـــا:

إن للكون عناصره التي تسير وفق نظام دقيق و محكم وضعه اللّه سبحانه وتعـــالى له، هذه العناصر التي انتظمت مع غيرها فكانت غاية في الدقة و الإعجاز، ولو أن أحـــد هذه العناصر غير مكانه و زمانه و دوره الطبيعي الذي جاء من أجله، لاختـــل النظـــام بأسره و فسد.

من هنا نقول إن لكل بناء عناصره التي لا بد لـــها من نظام يحكمها و قـــانون يسيرها لتكون في غاية الروعة و الإفادة كذلك الشأن بالنسبة لعالم الكلام أو الكلمات فهو أيضا بناء اجتمعت فيه عناصر مختلفة و خضعت لنظام معين حتى تكون بناءا سليما.

لهذا فإن نظم الكلام البشري قد يكون تاما مستوفيا جميع عناصره و معانيه، و قد يشوبه النقصان و الخلل إذا هو خرج عن النظام و القوانين و في المقابل من هذا نجد نظم القرآن الكريم الذي يمثل دون منازع بناء تاما و نظاما محكمـــا أبهـــر صـــنّاع الكـــلام و استنطق قرائحهم و عقولهم، فدرسوا الـــنظم القرآني و اكتشفوا أســـراره و روعـــة بلاغته و نظمه.

لقد مثلت المفردة أو الكلمة —و لازالت- متنفسا كبيرا للإنسان و مـــن هـــذا المنطلق تجدني أتطرق إلى هذا الجانب، لنرى ما مثلته الكلمة في حياة الناس و مـــا طـــرأ

عليها من تغيير من قبل مجيء الإسلام إلى نزول القرآن الكريم، حيث لا يغيب عن أذهاننا أن العرب قد عاشوا حياة البادية القاسية من الفراغ الموحش و جفاف الجو و تقلبه بين السّموم المحرق و النسيم العليل، كلّ هذا حرك في إنسان البادية الحيوية و رهافة الحـــس و حدة الذكاء، فكانت الكلمة متنفّسهم لإبداء ما يجول في الخاطر، و القارئ لصـــدر التاريخ يتأكد له جليا « أن العرب وحدهم من بين سائر الأمم هم الذين استطاعوا أن يصوغوا الحياة كلها في تلك الكلمات التي أصبحت لغة مكتملة البناء راسخة الأركان بما أبدعوا من أمهاتها وأصولها».[1]

إن الذي كان يرصد مجرى الحياة العربية قبل البعثة النبوية كان يرى أن أوضـــح ظاهرة في حياة الأمة العربية و أقوى قوة عاملة فيها هي "الكلمة" فالكلمة عند العـــرب هي تاريخ أمة بأسرها، هي عقلها المفكر و مشاعرها المتدفقة و خيالها المنطلـــق، فمـــا عرفت الحياة أمة من الأمم كانت الكلمة مالكة زمامها و مصرفة أمرها و منطلق حياتها و مسبح آمالها و آلامها كالأمة العربية منذ جاهليتها إلى أن طلع عليها فجر الإســـلام بالقرآن، و ماذا كان يكون شأن الأمة العربية في الحياة لو لم تكن الكلمة معها في هذه الرحلة الشاقة الطويلة عبر تلك الحياة الغليظة الجافة؟ انه لولا الكلمة لما احتمل العـــرب

---

[1] الإعجاز في دراسات السابقيـــن:عبـــد الكريـــم الخطيـــب، دار المعرفة، لبنان ط1، د.ت، ص: 127

الحياة في الجزيرة العربية و لما قام لهم وجود فيها على تلك الصورة التي جعلت منهم قبائل و عشائر ثم جمعتهم أخيرا في أمة واحدة.[1]

و يمكن القول إن ظروف الحياة التي فرضتها الطبيعة على العرب في هذه الصحراء القاحلة المقفرة، – و في ذلك الموطن الجديب الذي لا تحتمل النفس البشرية الحياة فيه إلا إذا دخل عليها عنصر جديد– جعلت للكلمة في أفواههم طعما لم يكن لها على أي فم في أي مكان غير هذا المكان، و كانت الكلمة و الكلمة وحدها الوسيلة دون أية وسيلة أخرى من تلك الوسائل الكثيرة التي تصل ما بين الناس و بين الحياة.

لقد ضمّت اللغّة العربية كل ما في الحياة من معطيات الفنون و الآداب وأكبر برهان على ذلك الشعر الجاهلي الذي أدركه الإسلام فهو الصورة الكاملة للبيان العربي و الشهادة القاطعة لما بلغته الكلمة في اللسان من القدرة على الإبانة عن أدق وأعمق المشاعر الإنسانية، « و لقد استغنى شعراء الجاهلية بالكلمة عن غيرها من الفنون إذ كانت أخف محملا و أكثر طواعية و كان ظهور الشاعر في القبيلة إيذانا بمولد السيادة و العزة فيها»[2]، و كانت قصيدته رواية خالدة تردد على كل لسان.

[1] ينظر، المرجع السابق، ص: 128
[2] المرجع نفسه، ص: 127

و يحضرني الآن ذكر قبيلة "تغلب" التي قال فيها الشاعر عمرو بن كلثوم قصيدته الشهيرة، هذه القصيدة التي كانت مبعث فخر القبيلة و تركت آثارا واضحة في عواطفها و تفكيرها حتى أقامتها على العناد الآثم و لم تدخل في الإسلام، فاتخذت من المعلقة كتابها المقدس و دينها القويم. يقول أحد الشعراء المعاصرين لقبيلة تغلب في مجرى حياتها:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم[1]

فهذا مثل من أمثلة كثيرة لما كان للشعر الجاهلي من سلطان على العقول.

و لما جاء الإسلام بالقرآن الكريم و ببلاغته المعجزة استطاع أن يخفت صوت الشعر، فسكنت حمياه في الصدور بعد أن امتلأت القلوب بمشاعر العقيدة الدينية، و كان في آيات الكتاب الحكيم الكفاية العظمى بل و تزيد في إرضاء حاجة القلب و خلجات الوجدان، فقد جمع ألوان العواطف الإنسانية كلها و هنا نقول أن الدعوة الإسلامية و إن قطعت العرب عن كثير من حياتهم الجاهلية، لم تذهب بالشعر الجاهلي جملة و لم تقطع الصلة بينه و بين العرب جميعا، و إن كثيرا من هذا الشعر قد بقي في مستقره من قلوب كثير من الصحابة و عقولهم، إذ كان فيه الحكمة البالغة و الرأي الصائب، و الخلق

[1] المرجع السابق، ص: 127

الكريم و كثير مما جاء به الإسلام و دعا إليه[1].

إنّ الجهة التي تصدر عنها الكلمة هي التي تعطيها مدلولها في صورة قوية أو ضعيفة، ظاهرة أو باهتة، فمثلا سمع الشاعر "النابغة الذبياني" (ت 604 م) أنّ "النعمان بن المنذر" قال يتوعده: (سوف أناله)، ففعلت هذه الكلمات فعلها في الشاعر فأنشد يقول:

أتاني – أبيت اللّعن– أنّك لُمتني و تلك التي تصطكُّ منها المسامعُ
مقالةَ أنْ قلت سوف أناله و ذلك من تلقاء مثلك ضالعُ
فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلة من الرُقْط في أنيابها السمُّ ناقعُ
فإنّك كالليل الذي هو مُدركي و إنْ خِلْتُ أنَّ المُنتأى عنك واسعُ [2]

إنّ هذه الأبيات تعرض أمامنا نظما بديعا، قام به الشاعر، فالكلمات بمواضعها التي جاءت فيها، أفضت إلى بناء محكم و كلام بديع و بليغ وليس كلّ إنسان بقادر على أن يدير الكلمة على الوجه الذي يريد، بل إنّ ذلك يعود إلى قوى الفرد النفسية و العقلية و الروحية فمثلا، قد تسمع الكلمة من رجل جادّ فتقع في نفسك موقعا و تسمع نفس الكلمة من آخر هازل، فتقع في نفسك موقعا بعيدا بعد ما بين الرّجلين و الحالين، و في هذا الصدد يقول "القاضي الجرجاني" في كتابه (الوساطة بين المتنبي

[1] ينظر: الإعجاز في دراسات السابقين:عبد الكريم الخطيب، ص: 130
[2] ديوان النابغة الديباني، جمع و تعليق محمد الطاهر بن عاشور، ط1، نشر الشركة التونسية للتوزيع و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ص: 32

و خصومه): « و قد كان القوم يختلفون في ذلك و تتباين أحوالهم، فيرقّ شعر أحدهم و يصلب شعر الآخر.... و إنّما ذلك بحسب اختلاف الطّبائع، و تركيب الخلق، فإنّ سلامة اللّفظ تتبع سلامة الطّبع، و دماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة»[1].

و من الواضح هنا أنّ بصمة صاحب الكلام سواء كان شعرا أم نثرا تبرز من خلال الكلمة، و تأخذ صبغة صاحبها.

إنّ كلام البشر بشعره و نثره و إن كان يحمل معاني سامية و مشاعر عميقة في نظم رائع و صياغة عجيبة، فإنّ منطق التجربة يؤكد لنا أنّ تكراره يجعل جماله يزول و معانيه تبلى، ضمن هذا السياق يقول الخطابي: « ... فاختر لنفسك أروع وأبلغ الكلام نثرا كان أم نظما، ثمّ عش معه يوما أو أياما و عد إليه بعد هذا مرّة أو مرّات فماذا ستجد ؟ لا شكّ أنّ في اللقاء الأوّل سيكون هذا الكلام طيّبا ينشرح له صدرك و روحك و يرضي عقلك و قلبك.... و يأتي الوقت الذي لا إثارة ولا تأثير ».[2]

و يضيف الخطابي واصفا هذه الحالة التي تصل إليها النّفس مع الكلمات البشرية: « حسبك أن تعلم أنّ أقسى عقوبة تقع على نفسي هنا أن يفرض عليّ ترديد هذا الكلام، و ملء فمي و سمعي به مرّة بعد مرّة، بعد أن أخذت النّفس حاجتها منه، إنّ

[1] الوساطة بين المتنبي و خصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم و علي البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت -لبنان-، دت، ص:

[2] الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص: 154

الأمر يصل إلى حدّ الاختناق، كمن امتلأ بالطّعام و الشّراب ثمّ أريد له أن يزداد طعاما»[1].

و على هذا النّحو يتّضح جليّا أنّ صنعة البشر لا بدّ لها أن تذبل و تموت بمرور الزّمن مهما بلغت من المهارة و الدقّة.

إنّ القرآن الكريم كلام تحرّكت به الألسنة، و نطقت به الأفواه قبل أن يتلقّاه النّبي صلى اللّه عليه و سلّم آيات بيّنات، ووحيا من اللّه عز و جلّ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[2] و قوله سبحانه: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ*بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[3].

فما سرّ هذا الكلام الذي يجعل من نبيّ الرّحمة صلى الله عليه و سلم« يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء و هو يتلو آياته؟»[4].

فأيّ كلام و أيّة كلمات تلك التي كانت معجزة للبشر كلهم؟.

لقد أبهر إعجاز القرآن الكريم عقول العلماء، فراحوا يبحثون عن أسراره ويؤلّفون فيها، واتفقوا على أن القرآن معجز بعدة أمور، كالإخبار بالغيبيات وروعة نظمه

---

[1] المرجع السابق، ص: 154
[2] سورة يوسف، الآية 02
[3] سورة الشعراء، الآيات 193، 194، 195
[4] نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد عمار، دار الفكر -دمشق-، ط1، 1997، ص: 53

وتأليفه، وأمور أخرى سأذكرها في موضعها المناسب أثناء التحليل والمناقشة في متن البحث.

إنَّ القرآن الكريم كتاب خالد، يدفع عن اللغة العربية النسيان، ذلك ما قرره كثيرون من بينهم "مصطفى صادق الرافعي" بقوله: «إن القرآن كتاب أنزل لتكون كل نفس سامية، نسخة حية من معانيه، وليكون هو النفس المعنوية الكبرى، فهو كتاب ولكنه مع ذلك مجموعة العالم الإنساني»[1].

و يمكننا القول بأنه قد ثبت قطعيا إعجاز القرآن الكريم، الذي تكلم فيه المفسرون والمتكلمون و بلغاء الأدب، ووضع في ذلك " عبد القاهر الجر جاني" كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) لإثبات ذلك بطريقة فنية وقواعد علمية، وغيره ممن تحدثوا عن إعجاز القرآن الكريم، وأجمعوا على أنه ذلك النظم الجيد الوثيق الذي تعجز دونه العقول والقرائح.

وخلاصة لما سبق ذكره، نستطيع القول بأن القرآن العظيم نزل بلغة العرب فالكلمات نفسها ومع هذا كان لها وقع جديد في نفوس البشر الذين التصقت حياتهم وأرواحهم بالكلمة، فكانت أوفى صاحب لهم يعبّرون بها عمّا يختلج في صدورهم وعقولهم، فلمّا جاء القرآن الكريم أضفى على هذه الكلمات سحرا خفيا معجزا، إذ جاءت الكلمات

[1] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي -بيروت-، ط3، د ت، ص: 86

وفق نظام ونسق إلهي عظيم، وهذا ما نعمل على إجلائه وكشفه بكل صدق وجدّ في فصول البحث المعدّة لهذا الغرض وذلك حسب قدراتنا ومستوانا.

2- القصة القرآنية: مفهومها وأهميتها:

يعدّ القصص القرآني جزءا هاما من القرآن الكريم، فهو يلتحم به. يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِه لَمِنَ الغَافِلِينَ**﴾ [1].

فالله عز وجل يحكي لنا أحداثا وقعت، ويقص لنا تفاصيلها في نسق من القصص القرآني الكريم، بأسلوب معجز وفريد.

لقد درس علماؤنا القصص القرآني وألفوا فيه العديد من المصنفات و سكبوا فيها عصارة ما وصلوا إليه من عظيم الفهم والفائدة من هذه القصص المباركة للناس جميعا، و نحن نسمع قصص الحياة على اختلافها فيكون فيها من التخفيف والإمتاع والإفادة الشيء الكثير، فكيف الحال بالنسبة لقصص من القرآن الكريم.

و مما لا شك فيه أن القصص المألوف في الحياة العربية قبل نزول القرآن الكريم كان قصصا خياليا خرافيا يساق للهو والترفيه عن النفس والتخفيف من قسوة الحياة

[1] سورة يوسف، الآية 03

البدوية أو الهروب منها، حيث لا متنفس للناس في هذه الحياة الجافية إلاّ الأوهام والخيالات، يتخذونها أداة للتعبير عن أمانيهم وأحلامهم.

هكذا، كان القصص قبل مجيء القرآن الكريم « لا يستدعي العقل و لا يتجه إليه إذ كان كله تقريبا جاريا على ألسنة الحيوان أو الجن، وهذا من شأنه أن يدعو المرء إلى أن يلقاه في غفلة من عقله حتى يمكن أن يستمع إليه، وتقبل أذنه ما فيه من شطحات و مفارقات »[1].

وقد جاء القصص القرآني معرضا حيا لكثير من أحداث الحياة الماضية ووقائعها فتخير منها ما فيه العبرة والعظة، فبعثها من موضعها بمشخصاتها كلها و بأحوالها و أزمانها وأمكنتها حتى كأنها مولود جديد، لم يغب منها شيء، و لم يذهب الماضي بشيء من جدتها وحيويتها[2].

إنّنا نقرأ القصة من كتاب الله، فننتقل إلى مكانها و زمانها في روعة منقطعة النظير، نعيش أحداثها وأطوارها لم ينقص الماضي من جدتها وحيويتها شيئا، مثال ذلك قصة النبي" موسى" عليه السلام مع فرعون، فإذا نحن ننتقل من القرن العشرين الذي نعيش فيه إلى ما قبل الميلاد لنحيا في مصر وترتسم الأحداث أمامنا مشاهد حية، و من ذلك مثلا قصة أصحاب الكهف وقد انطوى فيها عنصر الزمن، فلم يكن في القصة ذكر

[1] الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص: 419
[2] ينظر: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: 97

لحدث تاريخي أو لشخص من أشخاص التاريخ يشير إلى حدود الزمن في القصة، ومـــع ذلك فإننا نستشف ملامح من الماضي السحيق[1]، ولو بحثنا في القصة عن عناصرها الفنية وأردنا تحديد المكان في قصة أصحاب الكهف مثلا ومن هم شخصياتها، فيمكن القـــول أن المكان هو الدنيا حيث الخير والشر، والهدى والضلال، أما الأشخاص فهم في كيـــان الناس جميعا وفي ضمير المجتمع الإنساني كله، حيث يقع الناس على مواقع الخير والشـــر ولعلنا نجد هاهنا أن عنصر المكان ووجه الأشخاص ليس له أثر في اتجاه الغاية التي تهدف إليها القصة، إذ الوجهة الناس جميعا في كل مكان، كذلك الزمن « إذ أنـــه وإن يكـــن هدف القصة غير مقيد بزمن و لا محدود بمكان، فإن للمؤمن أثرا في إضفاء لـــون مـــن الإكبار والإجلال على أحداث القصة، وبالتالي يعظم في النفس موقع العـــبرة و العظـــة منها»[2].

و لعل هذا ما يجعلنا نرى أن تدبير القرآن الكريم في هذا، يكشف لنا عن وجه جديد من وجوه الإعجاز فيه، إذ وضع القصة بهذا الموضع منه، وأنزلها تلك المترلة فيـــه وأناط بها هذه المهمة العظيمة، فجعلها عبرة و عظة ومصدرا للحكمة والموعظة الحســـنة وحسبنا بذلك دليل على أن « كتاب الله جملة من الأزل تحولـــت في معـــنى ومنطـــق وجاءت لغرض وغاية ولامست الناس لتكون فيهم سببا لرسوخ الإيمان ثم نظاما للإيمان

[1] ينظر: الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص: 420
[2] المرجع نفسه، ص: 420

نفسه، ومتى رسخ الإيمان، فقد رسخ العالم كله في النفس الإنسانية، وهذا عندنا من بعض السر فيما جاء في الكتاب الكريم من آيات السماوات والأرض والنظر و الاستدلال ومن طرق التعبير النفسي بالأمثال والقصص وغيرها»[1].

على أية حال، فإنّ القصص القرآني وسيلة من وسائل تبليغ الدعوة القرآنية « إنّه يهدف إلى تربية نوع الإنسان، فيضمن له الفلاح و يعمّق العقيدة في نفسه و ما نجد أيضا في القصّة القرآنية من رونق الأسلوب، و بديع النظم و جمال الصورة، ممّا تعجز عنه قوى البشر، و إضافة إلى ما فيها كذلك من المواقف و التحاليل النفسية و الاستنتاجات الكامنة وراء الأحداث التي يجد فيها علماء النفس بغيتهم، ويجد فيها العلماء الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والإنسان والحياة والأحياء في السماوات والأرض والتي تزيدها الأيام وضوحا وظهورا »[2].

ويتضح جليا مما سبق ذكره، أن القصة القرآنية تعد حقا مصدرا ثريا يستند إليه كل عالم باحث سواء عن حقيقة الكون أو حقيقة الإنسان، وبالتالي فإن القرآن الكريم معجزة عظيمة والقصة القرآنية جزء هام منه يلتحم به ولا ينفصل عنه أبدا و هي الأخرى وسيلة من وسائل إبلاغ الدعوة الإلهية والتي تنفرد بأسلوب إلهي مميز ومعجز يعلو على المنطق الإنساني ولا يقف عند حدود الزمان والمكان.

[1] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: 103
[2] القصص القرآني (إيحاؤه و نفحاته)، فضل حسن عباس، شركة الشهاب للنشر و التوزيع – الجزائر – ط1، 1989، ص: 24

مفهوم النظم لغة واصطلاحا:

إنّ استقراء تاريخ الدارسات البلاغية والنحوية التي سبقت عهد " عبد القـــاهر الجرجاني" مؤسس نظرية النظم، يدل على أن فكرة النظم وبوادره كانت موجودة لكنها لم تصبح نظرية قائمة مستقلة مكتملة البناء إلا على يد الجرجاني وسيأتي فيما بعد تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

إنّ اللغة الإنسانية المعبّر عنها بالكلام ما هي إلاّ معـــان في أذهاننـــا تجسّـــدها بالألفاظ، ثمّ ترتّب هذه المعاني حسب ترتيبها في الذّهن إذ أنّ غاية اللغة هي الاتصال بين النّاس و التفاهم. و قد كان الشعر اللغة الرّسمية للقبيلة في المجتمع العربي قبـــل الإســـلام و قد نشأت – نظرا لثراء هذا الموروث الثّقافي- دراسات و مؤلفات قيّمة زادت مـــن عمق الفهم و المعرفة لدى المتلقي، لكنه و بنزول القرآن الكريم تأسس صـــرح البلاغـــة العربية المستمدّة من البلاغة القرآنية، و كان اهتمام العلمـــاء بقضـــايا القـــرآن بليغـــا « يستمدون منه شواهدهم و قياساتهم في اهتمامهم بأصول الدين و مباحثهم في علـــم التوحيد و العقيدة و غيرها»[1]. و معنى ذلك أنّ إعجاز القرآن و انفراده بسمو البلاغة و شمولية المعارف كلها على أنواعها، جعله المرجع الأساسي و الأول في دراسات العلماء المختلفة أمّا عن نظم الكلام ووضع المفردات، فهذا الأمر قد أخذ بعدا عميقا في دراسات

[1] الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني، تحقيق، محمد علي النجار، عالم الكتب -بيروت-، ط3، 1973، ج1، ص:146

العلماء خاصة بمجيء نظم القرآن الكريم، وفي هذا الشأن يقول "ابن جني" (ت 392 هـ) : « لما كانت الألفاظ و المفردات مجرد رموز للمعاني و الأشياء التي لا بد أن يعرف المتكلم و السامع معانيها أصلا، فلا تتم إذا الفائدة بهذه الألفاظ دون تعليقها ببعضها و بطريقة عقلية يقتضيها حال السّامع و حاجته، فإنّ أي تغيير في وضع الألفاظ بجانب بعضها لا بدّ أن ينشأ عنه تغيير في المعنى المقصود، و بالعكس و من هنا كان نظم الكلام هو اللغة »[1].

إذن فاللغة أساسا هي طريقة نظم الكلام، أي توخّي وضع الكلمات في المكان المناسب و بالتالي فان النظم فكرة ضاربة بجذورها في القدم، نشأت و تبلورت على يد عبد القاهر الجرجاني لتصبح نظرية متكاملة.

و تجدر الإشارة إلى أنّ المعاجم العربية قد تضمنت معاني كلمة **نظم** « فالنظم التأليف، و يقول نظمه، ينظمه نظما و نظاما، و نظمه فانتظم و تنظّم و نظّمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك، و التنظيم مثله. ومنه: نظمت الشعر ونظّمته و كل شيء قرنته بآخر أو ضمّت بعضه إلى بعض فقد نظّمته»[2]. و على هذا النحو نجد مثلا حبات اللؤلؤ المنثورة، فإنها قد لا تملك من نفسك شيئا، و هي على هذه الحال

[1] المرجع السابق، ص: 147
[2] لسان العرب، ابن منظور، (مادة نظم)، عالم الكتب -بيروت-، ط1، د ت، ص: 69

لكن بجمعها و تنسيقها، فالأمر هنا سيختلف، و من المجاز أيضا: نظم الكلام « هذا نظم حسن، و انتظم كلامه و أمره، و ليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته و نقول أيضا تناظمت الأشياء تضامّت و تلاصقت و يقال نظم القرآن، أي عباراته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة و لغة»[1].

و من كل هذه التعريفات و غيرها، نصل إلى أنّ المدلول الأصلي لكلمة **نظم** هو الاتساق و الترتيب و الائتلاف و التناسب بين الأجزاء فإنّ نظم حبّات اللؤلؤ في الخيط يستوجب إحكام الصنعة، ليبدو العقد سليما في مظهره، كذلك الأمر بالنسبة للكلام «يتطلب دقة الإحكام ووضع اللفظة بجانب الأخرى صنيع ناظم اللؤلؤ و حائك الخيوط »[2]، أي أنّ النظم عمل يتوخى معرفة الوضع الصحيح للمفردة و مدى تناسقها بالأخرى في سياق بديع.

أمّا تعريف النظم في اصطلاح البلاغيين و النقاد، فله عدة معان يتفق و المعنى اللغوي الذي سبق، فالجاحظ (ت 255 هـ) يعرفه بأنه التأليف و يقول في معرض حديثه عن نظم القرآن الكريم: « إنّ الرسول صلى الله عليه و سلم تحدّى البلغاء و الخطباء و الشعراء بنظمه و تأليفه »[3] أي بنظم القرآن و تأليفه.

---

[1] المرجع السابق، ص: 72

[2] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: 78

[3] العمدة في محاسن الشعر و آدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد القرقزان، دار المعرفة -بيروت-، ط1، د ت، ص: 441

و يعبّر الجاحظ عن نظم الكلام بقوله أيضا « أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا و سبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدّهان»[1].

أي أنّ الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ هو ما لذّ سماعه و كان أخفّ محملا على اللسان، و قريب الفهم للأذهان مع عذوبة النطق و سلامته.

و إذا مضينا إلى "ابن قتيبة" (ت 276 هـ) نجده يقول:« جاء النظم بمعنى سبك الألفاظ و ضمّها إلى بعضها البعض في تأليف دقيق بينها و بين المعاني، فيجريان معا في سلاسة و عذوبة كالجدول »[2].

و الواضح من هذا القول أنّ النظم في تصور "ابن قتيبة" يعني صناعة الألفاظ و ذلك بضم بعضها إلى بعض، بحيث تكون اللفظة مناسبة دقيقة في موضعها بالنسبة للألفاظ الأخرى، فيأتي المعنى سلسا عذبا محكما.

و ختاما يظهر لنا أن المعنى اللغوي و الاصطلاحي مشتركان في تعريف النظم إذ أنه ضمّ الشيء إلى الشيء على نسق واحد، و هو أصل المعنى الذي ذهب إليه "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه (دلائل الإعجاز) و فيه ربط النظم بعلم النحو، و سوف أتناول بالتفصيل مفهوم النظم عنده، و كيف توسّع و تطور على يده و أصبح يشكل

[1] المرجع السابق، ص: 441
[2] نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد عمار، ص: 122

نظرية كاملة خدمت العلم و العلماء، و أمدّهم بفهم جديد و بهذا استحق الرجل أن يكون رائدا في هذا المجال.

فكرة النظم أصولها و نشأتها:

من المناسب أن نعيد التذكير بما أشرنا إليه سابقا، و هو أن النظم قبل أن يرتقي إلى مستوى النظرية على يد "عبد القاهر الجرجاني" فإنه يسبق عصره بزمن طويل وهذه لمحة إضافية تعد بمثابة فرش لما نتناوله من بعد.

لقد كانت نشأة العلوم العربية أثرا من آثار الإسلام، فلم يعرف عن العرب قبلهم جهودا تذكر في دراسة لغتهم، وقد رأى بعض الباحثين أن فكرة النظم تعود إلى "أرسطو "عالم اليونان، وذلك في كتابه (فن الشعر) الذي تحدث فيه عن أقسام الكلمة و كل ما يتعلق بها، لقد وضع مستويات للغة للتمكين من دراستها، و ميّز أيضا أشكال الكلمات والجمل[1].

نبدأ بشعب الرومان، فقد ألّف "بريشيان" في القرن السادس كتابه (قواعد اللغة) وبه ثمانية عشرة قسما، و هو صاحب التعريف الذائع « الجملة نظام من الكلام يدل على معنى كامل»[2].

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 252
[2] المرجع نفسه، ص: 252

كذلك فعل الهنود إذ بحثوا في اللغة للمحافظة على كتابهم المقدّس (الفيدا)، و في هذا السياق يشير: "أحمد سيّد عمّار" أنه لا توجد بين أيدينا من دراسات الهنود ما يوضح فكرة النظم عندهم، سوى ما جاء في كتاب (البيان و التبيين) للجاحظ عن الصحيفة الهندية، و ما فيه من أمور تتصل بالخطيب و صفاته و بالأسلوب، و ليس فيها ما يشجع على القول بنسبة النظم إلى الهنود[1].

من أجل ذلك كله، فإن تراثنا القديم يبيّن جهودا عظيمة دارت حول فكرة النظم، فللنحاة فضل كبير في دراسة الكلام و تحليله و الوقوف عند الجملة و صون الكلام و المتكلم عن الخطأ و اللحن في الإعراب الذي ظهر بانتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية، و الخوف على القرآن الكريم من اللحن و الغلط، و يعدّ شيخ النحاة "سيبويه" من أقدم العلماء الذين وقفوا عند هذه الجوانب بعمق و قد أخذ عنه النحاة و البلاغيون و النقاد أصوله، غير أنّ سيبويه و النحاة لم يسمّوا ذلك نظما، و إنّما هي قواعد تسير عليها العرب في كلامها أو إنشائها و لعل أقدم إشارة إلى النظم، وردت على لسان الكتّاب من الأدباء عبارة "لابن المقفع" إذ يقول: « فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل، و أن يقولوا قولا بديعا، و ليعلم الواصفون المخبرون أنّ أحدهم و إن أحسن و أبلغ ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا و زبرجدا فنظمه

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 253

قلائد و سموطا★ و أكاليل، ووضع كلّ فصّ موضعه و جمع إلى كلّ لون شبهة، مما يزيده بذلك حسنا فسمي بذلك صائغا رقيقا...»[1]

و يبرز جليا من قول "ابن المقفع" مفهومه لنظم الكلام، إذ يراه عملا لا يكون بديعا حسنا إلا إذا جمعت الفصوص أي الكلمات مع توخي أن تكون كل واحدة منها في الموضع الملائم لها مع جاراتها من الكلمات أو الفصوص التي تشبهها أو تقاربها، وكل هذا مما يزيد النظم حسنا ورونقا، من هذا أخذ البلاغيون كلام ابن المقفع وضمنوه كتاباتهم دون الإشارة إليه، فقال الجاحظ: « فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير »[2].

و من الملاحظ أن الجاحظ يتفق مع الرأي السابق في مفهومه للنظم ونظم الشعر تحديدا، وقد كان للجاحظ مؤلف سماه (نظم القرآن) فرّق فيه بين نظم القرآن ونظم الكلام، وبضياع هذا الكتاب أصبح من الصعب تحديد رأيه بوضوح في النظم، ورغم ذلك فإننا نراه غير بعيد عن القول بأن النظم ضم لفظ إلى لفظ آخر بناء على تناسق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها.

★ السموط: جمع سمط و هو القلادة

1 الأدب الصغير ، عبد الله ابن المقفع، مكتبة الحياة، ط1، د ت، ص: 319

2 الحيوان، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق هارون، دار التراث العربي -بيروت-، ط3، 1986، ص: 132

وقد تبعه في هذا الرأي" أبو هلال العسكري" (ت 395 هـ) في كتابه (الصناعتين) وله فيه حديث مقتضب عن النظم، وذلك في باب البيان إذ تحدث عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك، إذ يقول: «الكلام – أيدك الله – يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخير ألفاظه وإصابة معناه و جودة مطالعه وليس مقاطعه واستواء تقاسمه، حتى لا يكون في الألفاظ أثر فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن وصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه »[1].

هكذا يتبين أن معيار سلامة الكلام عنده في سلامة و سهولة ونصاعة اللفظ.

هذا، و من جهة أخرى نجد " ابن رشيق القيرواني" المتوفي سنة (463 هـ) قد اعتبر اللفظ والمعنى شيئا واحدا متلازما كالروح والجسد إذ يقول: « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه كارتباط الروح بالجسم .... فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه .... فان اختل المعنى كله وفسد، بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه»[2].

إذن فالصورة الشعرية عند "ابن رشيق" تكون واضحة من خلال العناية باللفظ الذي يعد الوسيط الدال على المعنى المراد.

---

[1] الصناعتين، أبو هلال العسكري، دار النشر –الجزائر–، ط1، د ت، ص: 61
[2] العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، ص: 124

وخلاصة القول، فإن هذه بعض النماذج التي تحدثت عن فكرة النظم قبل "عبد القاهر الجرجاني" فالجاحظ يفضل اللفظ على المعنى والقيرواني يرى أن اللفظ والمعنى شيئ واحد، لكن هناك من وقف موقفا آخر وفيه جرد المعنى واللفظ، وقال بالعلاقة القائمة بينهما ويمثله الجرجاني (ت 471 هـ) ولنا وقفة معه لنسبر أغوار نظريته.

ويمكننا أن نقول في نهاية المطاف، أن كلمة النظم كانت معروفة بمفهومها اللغوي ولم تأخذ المفهوم الاصطلاحي، مما يمكن إرجاع أمر النظم أو البلاغة إليه، كما لا يخفى أن فكرة النظم برزت بشكل واضح جدا لدى العلماء المهتمين بقضية الإعجاز، بل وقد تصدرت عناوين مؤلفاتهم، ككتاب الجاحظ الذي ضاع فيما ضاع من ذخائر التراث العربي، كما نجد أيضا كتبا أخرى ككتاب "أبي بكر عبد الله بن داود السجستاني" (ت 316 هـ) وكتاب لأبي زيد البلخي (ت 322 هـ) وكتاب "لابن الإخشيد محمد بن يزيد الواسيطي" المعتزلي (ت 306 هـ)[1].

و من الذين تناولوا هذا الموضوع بالدراسة و خاضوا فيه و نظرا لكون آرائهم تصب في واد واحد مع من سبق ذكرهم فإننا نقتصر على ذكر أسمائهم فقط و هم " أبو الحسن علي بن عيسى الرماني" (ت 386 هـ) و"أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم

[1] ينظر نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 128

الخطابي" (ت 388 هـ) و"أبو بكر محمد بن طيب المعروف بالباقلاني" (ت 403 هـ) والقاضي "أبو الحسن عبد الجبار الأسد أبادي" (ت 415 هـ).

وقد كان من الطبيعي، بل ومن الضروري عرض هذه الآراء حول فكرة النظم لمعرفة وجه المخالفة أو الموافقة بين هذه الآراء وآراء عبد القاهر الذي سنفرد له مساحة هامة في هذا البحث حتى و إن جاءت موجزة و مختصرة جدا.

و بعد هذا لا بد من الإشارة إلى ضرورة التعرف مسبقا ولو في لمحة وجيزة عن النظم في القرآن الكريم وروعته وبعض مواضعه مما دفع علماءنا إلى السير حثيثا في طريق البحث والتأليف فيه وكل ذلك وغيره سيأتي التفصيل فيه فيما يلي من البحث.

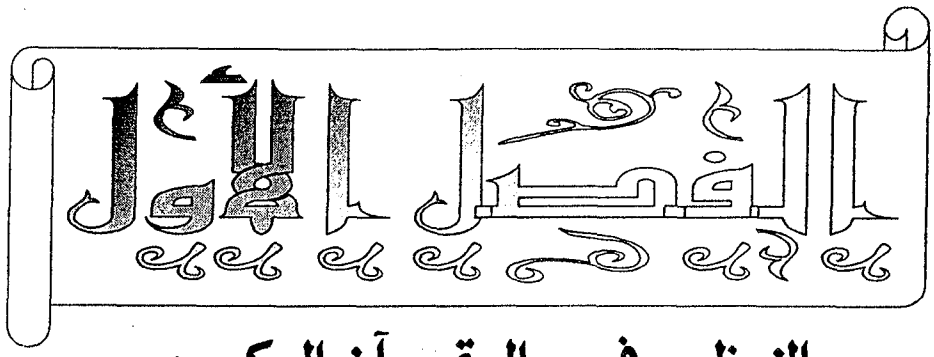

النظم في القرآن الكريم

1- بدايات البحث في الإعجاز

2- نظم القرآن الكريم

3- النظم عند أبرز القدماء

أ- الرماني

ب- الخطابي

ج- الباقلاني

د- القاضي عبد الجبار الأسد أبادي

4- النظم عند عبد القاهر الجرجاني

أ - محتوى كتاب دلائل الإعجاز

ب- الهيكل الأساسي لنظرية النظم اللغوية

ج- خصوصية الإعجاز عند الجرجاني

د- تعدد صور النظم

أولا: بدايات البحث في الإعجاز القرآني:

إنّ تحديد الجهة التي يصدر منها الإعجاز القرآني أمر لم تلتق عنده الآراء و لم يتفق الباحثون و الناظرون في وجوه الإعجاز في كل زمان و مكان، فقـــد تعـــددت الآراء و المذاهب غير أنها جمعت الرأي على أن القرآن الكريم معجزة تختلف عـــن معجـــزات الأنبياء الأولى و التي يعلم الناس لوقتهم ماذا فيها من دلائل أما القرآن الكريم فهو علـــى خلاف ذلك كله، انه عبارات و كلمات مألوفة لدى الناس، دليل ذلك قول الله سبحانه و تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[1]، فهي كلمات نظمها القـــرآن في آيات محكمات و صور منها أحكامه.

إن خلو القرنين الأولين للإسلام من الدراسات القرآنية التي تتصل بإعجاز القرآن كان عن تهيب لمقام القرآن الكريم و عن حرص البعد عن الجدل في مفاهيم آياته، لكن اتساع رقعة الإسلام و دخول كثير من غير العرب في هذا الدين جعل شـــرح الآيـــات و تفسيرها أمرا ضروريا لأولئك الذين ليس لهم حظ من اللغة العربية يصلهم بـــالقرآن العظيم صلة مباشرة، فكان أن أخذ بعض العلماء يضعون للقرآن تفسيرا للغريـــب مـــن مفرداته أو تفسيرا كاملا لمعنى آياته و استخراج أحكام للشريعة منها، كذلك كان علم الكلام الذي ظهر في أواخر القرن الثاني و أوائل القرن الثالث للهجرة داعية من دواعي

[1] سورة يوسف، الآية 02

الجدل و الخلاف بين المسلمين في أمور كثيرة تتصل بالعقيدة، و قد كان القرآن الكريم محل نظر المتكلمين و خصومهم فيما يجادلون فيه و يختلفون عليه، و كان موضوع إعجاز القرآن الكريم محل اختلاف و جدل[1].

لقد اجتهد الباحثون في هذا المجال، فكان لكل عصر رجاله و لكل منهم رأيه و لن نستطيع عرض جميع الآراء التي قيلت في الإعجاز و لكن سنتخير أهمها.

و البداية مع الجاحظ، فهو من الأوائل الذين نظروا في بلاغة القرآن الكريم و حاولوا معرفة السبيل إلى وجه الإعجاز فيه، و كان منطلق الأدباء الذين أتوا من بعده "كالباقلاني" في كتابه (إعجاز القرآن) و "الزركشي" في كتابه (البرهان في علوم القرآن) و غيرهما مما كان لهم رأي في الإعجاز.

أما عن رأيه في وجوه الإعجاز القرآني فهو الرأي الذي ذهب إليه الباقلاني و عبد القاهر الجرجاني فيما بعد و هو النظم « الذي انفرد به القرآن في صياغة أساليبه صياغة تنتظم بها المعاني انتظام الروح في الجسد».[2]

كان "الجاحظ" من الذين يحفلون بالصياغة اللفظية و ممن يجعلون لصفاء العبارة و نضارتها شأنا في البلاغة و تمكين المعنى من أن يعرض أروع عرض كل ذلك في فترة كان الاحتفال بالمعنى و كد الذهن له و الجري وراءه الظاهرة الغالبة. يقول الجاحظ:

[1] ينظر: الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص: 181
[2] المرجع نفسه، ص: 182

«و لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم و بلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها و مخرجها و في لفظها و طبعها أنه عاجز عن مثلها و لـــو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها».[1]

و الواضح هنا أن "الجاحظ" يقر بأن النظم على صورة مخصوصـــة و في امتـــداد رحب هو المعرض الذي تتجلى فيه روعة القرآن و تتخايل ملامح إعجازه.

و لم يكن رأي الجاحظ هذا متسلطا على الناظرين في إعجاز القرآن وحدهم، بل أنه قد تسلط تسلطا قاهرا على الذوق الأدبي و على مقاييس الأدب عند البـــاحثين في الأدب و فنونه، فجاء من بعده آخرون نحو هذا المنحى في تقييم الأدب و في الموازنة بين الجيد و الرديء منه، منهم " ابن بشر الآمدي" و كتابـــه (الموازنـــة بـــين الطـــائيين) و"أبو هلال العسكري" في كتابه (الصناعتين) و "ابن رشـــيق القـــيرواني" في كتابـــه (العمدة في صناعة الشعر و نقده) و غيرهم[2].

لقد جاءت فيما بعد ثلة من العلماء الذين أفردوا إعجاز القرآن الكريم بدراســـة خاصة كما فعل "الخطابي" و "الرماني" و "عبد الجبار الأسد أبادي" و "عبـــد القـــاهر الجرجاني" و آخرون، إلا أن أكثر مباحث المسلمين هي التي كانت تجيء ضمن مباحث التفسير أو القراءات فمعظم المفسرين حاولوا أن يجعلوا في صدر تفاســـيرهم إشـــارات

[1] المرجع السابق، ص: 182
[2] ينظر: المرجع نفسه، ص: 183

تتضمن آراءهم في فضل القرآن و إعجازه و نعل "الزمخشري" (ت 538 هـ) أشهر هؤلاء المفسرين و أولاهم بالذكر في هذا المقام، فتفسيره (الكشاف) يبحث فيه عن مواطن الإعجاز في كتاب الله تعالى و في آياته آية آية و كلمة كلمة.

إن القرآن العظيم كلام معجز، حيث قامت الشواهد و الأدلة القاطعة المتصلة أبد الدهر على وقوع الإعجاز بهذا الكلام و كان الكشف عن وجه الإعجاز فيه و دلائله مطلبا عزيزا أثيرا انصرفت إليه هم المسلمين و غيرهم ليقعوا على السر الذي من أجله كان القرآن الكريم بهذه المكانة العالية التي لا ينالها أحد و لا يطمع فيها بشر مع أنه من مألوف الكلام[1].

لقد كانت أولى دراسات الإعجاز متجهة وجهة غير البحث في وجوه الإعجاز و هي الدفاع عن القرآن الكريم مما أثاره الطاعنون فيه، فجاءت دراسة المجاز في القرآن للتدليل على عربية القرآن و فصاحته، مثال ذلك كتاب (مجاز القرآن) لـ "أبي عبيدة" (ت 204 هـ) و كتاب (مشكل تأويل القرآن) "لابن قتيبة" (ت 276 هـ) و غيرهم و بذلك مهد الكلام في مجاز القرآن الطريق أمام حركة أخرى تبحث في أوجه الإعجاز و ظلت متصلة الحلقات إلى أن توجت "بعبد القاهر الجرجاني".

[1] ينظر المرجع السابق، ص: 194

و يمكن أن نقول بإيجاز أن أوجه الإعجاز في مجملها عند البـــاحثين تنحصـــر في أربعة أوجه و هي:

أولا: النظم و الذي سنفصل فيه القول في متن هذا البحث.

ثانيا: الإخبار بالغيوب الماضية و المستقبلية، نذكر منها مثلا قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، أما الإخبار عن غيب المستقبل فكقوله تعالى: ﴿ **الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِـــي أَدْنَى الأَرْضِ وَ هُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** ﴾[1].

ثالثا: الإعجاز النفسي، و أول من تنبه إليه هو "الخطابي"، إذ يقول: « قلت في إعجـــاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم و ذلك صنيعه بالقلوب و تأثيره بالنفوس»[2].

و يعد هذا النوع من الإعجاز من أكبر دلائل إعجاز كلام الله تعالى.

رابعا: فنجد الإعجاز العلمي، و قد كان له لمحات عديدة عند السابقين من علماء القرن السادس الهجري و ما بعده، "ففخر الدين الرازي" (ت 606 هـــ) جاء تفسيره الكـــبير متضمنا آراءه الكونية و العلمية التي فاض بها القرن الخامس هجري[3].

---

[1] سورة الروم، الآيات 01، 02، 03

[2] الإعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص: 195

[3] ينظر: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، أحد سيد عمار، ص: 103

و بالإضافة إلى هذه الوجوه، فهناك من قال بإعجاز القرآن الكريم بالصرفة أي أن الله تعالى صرف العقول عن الإتيان بمثله، و هذا ما فنده المدافعون عن القرآن الكريم.

ما يهمنا هنا هو أن كتب الإعجاز قد تضمنت الحديث عن هذا الموضوع بتفصيل كبير و أن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم عديدة، لكن ما أوردناها هنا يعد الأساس في هذا الميدان.

ثانيا: نظم القرآن الكريم:

لعل من المناسب في هذا المقام أن أشير إلى أنني قد وضعت تعريفا لمصطلح النظم في المدخل، و تناولته من ناحية اللغة و الاصطلاح فإذن لا داعي للتكرار و لهذا أرى من المفيد هنا أن تكون البداية قول الله عز و جل: ﴿**قُلْ لَّئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [1].

ذلك لأن القرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه و نظمه و في علومه و حكمه و في تأثير هدايته و في كشف الحجب عن الغيوب الماضية و المستقبلية و في كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول و قد تحدى رسول الله صلى الله عليه و سلم العرب بإعجازه، و حكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، و ظهر هنا عجزهم أيضا، و قد

[1] سورة الإسراء، الآية 88

ثبت عندهم بالبرهان و الوجدان روعته و إعجازه، فالنظم القرآني و إعجـــازه البيـــاني الخالد أمر لا شك فيه.

يقول الإمام "محمد عبده": «إن لكلام الله تعالى أسلوبا خاصا يعرفه أهله و ممن امتـــزج القرآن بلحمه و دمه، و أما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الألفاظ و صـــور الجمـــل فأولئك عنه مبعدون»[1].

إن القرآن العظيم نزل بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة و ما تقوم به مما هو السبب في جزالتها و دقة أوضاعها و إحكام نظمها و اجتماعها من ذلك على تأليف صوتي يكاد يكون موسيقيا محضا في التركيب و التناســـب بـــين أجـــراس الحروف و الملاءمة بين طبيعة المعنى و طبيعة الصوت الذي يؤديه، فكان لا بد أن يكون القرآن الكريم أملك لهذه الصفات كلها و أن يكون ذلك التأليف أظهر الوجوه[2].

و لنتأمل بعض الأمثلة من الآيات الكريمة، و كم كان الاختيار صـــعبا فـــالقرآن العظيم كله مختار.

يقول عز من قائل في سورة الرحمن: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[3].

---

[1] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: 21
[2] ينظر: المرجع نفسه، ص: 24
[3] سورة الرحمن، الآيات من 1 الى 4

إنها صورة رائعة فريدة من النظم الإلهي، فنحن بين عدد من الآيات المباركة تشع نورا و ضياءا تلاحمت و تماسكت دون أن يقوم بينها حرف عطف. إنّ ما بينها من إلف يجعلها في غنى عن أن يستجلب لها عاطف يعطف بعضها على بعض و في السورة نفسها نجد قول الله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]. كيف جاء نظمها بديعا متماسكا، و هي تتكرر في السورة مرات و مرات و مع ذلك لا نجد ثقلا على السمع بل إننا ننطقها بلحن موسيقي يفيض بالرحمة و الجلال و القوة، و في قول الله تبارك و تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] نجد أن المقطع كله ليس فيه نبرة حنان و لا حرف لين « انه بناء من صخر و جليد، اجتمعت حروفه على تلك الصورة فكانت قذيفة منطلقة أو شهابا منقضا تقع على رؤوس المكذبين هدير الرعد و دمدمة الصواعق.... ثم سكون كسكون القبور ثم ماذا؟ »[3].

و في سورة القمر، يقول عز من قائل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ القَمَرُ * وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم وَ كُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[4].

---

[1] سورة الرحمن، الآية 13
[2] سورة المطففين، الآية 10
[3] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: 409
[4] سورة القمر، الآيات 1 ، 2 ، 3

لقد تكرر حرف الراء و هو أقوى حروف اللغة العربية تماسكا، «فإذا وقف عليه بالسكون انبعج في رخامة و لين و صار أشبه بالوادي العميق الرحب بين يدي جبل تنهمر عيونه و تتدفق سيوله، و سورة القمر تبدأ مزمجرة مدمدمة ثم تختتم هذا الختام الرضي الودود»[1] ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2].

و في الأخير يمكن أن نطرح سؤالا، هل قلنا في هذه الآيات كل ما ينبغي أن يقال؟ إننا لم نلق الآيات إلا من جانب ضيق من جوانبها الفسيحة و التي لو درنا حولها الزمن كله ما بلغنا لها مدى، و ما هذه إلا عينة كريمة من سور القرآن العظيم الكثيرة الذي تحدى البشر بالنظم السمح السهل المألوف فعجزوا عن مطاولته عجز استسلام و قد جمع نسجه بين السمح و الجزل و الفخم فزادهم تلك الصورة الرائعة من النظم حيرة و عجزا و أخذوا يبحثون في أسراره بكل جد و اجتهاد، فتعددت مذاهبهم.

و فيما يلي عرض لآراء بعض العلماء القدماء حول فكرة النظم و تعريفه.

ثالثا: النظم عند العلماء القدامى:

لقد سبقت الإشارة إلى أن أربعة من الذين تحدثوا عن النظم من خلال البحث في قضية الإعجاز و وصلت إلينا كتبهم، و هذا تفصيل لذلك.

---

[1] إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: 404

[2] سورة القمر، الآيتان 54 ، 55

أ- **النظم عند "الرماني"**[1]: المعتزلي، صاحب كتاب (النكت في إعجاز القرآن) و فيـــه يلخص وجوه الإعجاز في سبع جهات حيث يقول: «ترك المعارضة مع توافر الـــدواعي و شدة الحاجة، و التحدي للكافة، و الصرفة و البلاغة و الأخبار الصادقة عن الأمـــور المستقبلية و نقض العادة و قياسه بكل معجز»[2].

و يوجه المؤلف همه من هذه الجهات السبع إلى البلاغة، فيذكر أنها على ثـــلاث طبقات منها ما هو في أعلى طبقة و هو المعجز أي القرآن الكريم و الأدنى و هو كـــلام البلغاء من الناس، و منها ما هو في الوسط، كما أنه قسم البلاغـــة عشـــرة أقســـام[3] و الذي يعنينا هنا هو النظم، إذ يظهر ذلك في حديثه عن البيان فيشترط فيـــه حســـن الإفهام و يجعل حسن البيان في الكلام على مراتب: «فأعلاها مرتبة ما جمـــع أســـباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع و يسهل على اللسان و تتقبله النفس تقبل البرد، و حتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حق من المرتبة»[4].

إذن فالرماني يوجب ضرورة تحقق أربعة خصائص لعلو مرتبـــة البيـــان تتعلـــق بالصياغة، و هي حسن الوقع في السمع و الخفة على اللسان و حسن التقبل في الـــنفس و أن يكون المقال على قدر المقام، كما يرى أن ميدان التأليف و التفنن فيه مجال واسع

[1] هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، ولد سنة 296 هـ ببغداد، كان محبا للعلم واسع الإطلاع، توفي سنة 384هـ.
[2] النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، دار المعارف – مصر - ط١ ، د.ت ص: 85
[3] المرجع نفسه، ص: 107
[4] المرجع نفسه، ص: 108

من أي مجال آخر كمجال اللفظ مثلا، لأن التصرف فيه محدود أما في التـــأليف فغـــير محدود، و ذلك حال التأليف القرآني و فيه يكمن الإعجاز[1].

لقد اعتبر "الرماني" أن البلاغة وجه من وجوه الإعجاز و من هنا لم يشغل نفسه بصلة النظم بالنحو، و لكنه جدد ما يرتبط بالنظم و شرحه و أفاض فيه و مثل له كأنه كان يعنى بالجانب التطبيقي أكثر منه بالجانب النظري و التصور في مفهوم النظم عنـــده أنه «اعتبره طريقا إلى البلاغة التي هي أحد وجوه الإعجاز و بذلك غفل عن حـــالات النظم باعتبار صلته بالنحو و ما يستتبع ذلك من الغفلة عن كـــثير مـــن فنـــون علـــم المعاني»[2].

و كخلاصة لما جاء، يمكن القول إنّ حديث الرماني عن قضية النظم يعتبر أقرب إلى اللمحة الدالة و الإشارة العابرة منه إلى النظرية، فكتابه يوضح لنا أنه لا سلطان للنظم عنده على أبواب البلاغة الأخرى في حين أنه يمسك بزمام كل الأبواب عند "عبد القادر الجرجاني" كما سيأتي لاحقا.

ب- النظم عند الخطابي[3]: الأديب اللغوي المحدث، صاحب كتاب هام في الإعجـــاز الموسوم (ببيان إعجاز القرآن)، و ترجع أهميته لسببين هما: «أنه يمثل رأي أهل الحـــديث

[1] ينظر: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، أحمد سيد عمار، ص: 132
[2] المرجع نفسه، ص: 133
[3] هو أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي، ولد عام 319 هـ، صار إمام الحديث في عصره، توفي سنة 388 هـ.

في الإعجاز و يصور مرحلة جديدة من مراحل الدراسة البيانية لأسلوب القرآن و يعـــبر عن وجهة نظر و هي مسألة النظم القرآني بمعنى التأليف»[1].

و يعد الخطابي من الأوائل الملمحين إلى فكرة النظم، فهـــو لا يرتضـــي فكـــرة الإعجاز بالصرفة و يناقش هذا الأمر و كذا فكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلية و لا يرتضيها شرحا لأسرار الإعجاز، لينتقل إلى موضوع البلاغة فيرى أن الكلام قائم علـــى ثلاثة عناصر: «لفظ حامل، و معنى به قائم و رباط لها ناظم»[2] فيقول: «و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف و الفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح و لا أجزل و لا أعذب من ألفاظه و لا ترى نظما أحسن تأليفا و أشد تلاؤمـــا و تشاكلا من نظمه»[3].

و يقر الخطابي بشكل واضح إعجاز القرآن بالنظم فيقول:« و اعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني»[4].

و يأتي الخطابي برأي بديع، فيرى أن «تبدل اللفظة مكانها، إما أن يغـــير المعـــنى المقصود من الكلام، و إما أن يذهب الرونق و بالتالي سقوط البلاغة»[5].

---

[1] نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، أحمد سيد عمار، ص: 133
[2] المرجع نفسه، ص: 134
[3] بيان إعجاز القرآن للخطابي، تحقيق عبد الله الصديق، طبعة دار التأليف – القاهرة- ط ١، 1953، ص: 27
[4] نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، أحمد سيد عمار، ص: 27
[5] المرجع نفسه، ص: 29

و من البراعة في كتاب "الخطابي" أيضا ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلا فنيا جميلا، و من خصائص النظم عنده تهذيب الألفاظ و إخضاعها للسياق و مقتضى الحال من ظروف الكلام و التكلم و المعاني المعبر عنها[1].

إنّنا نلاحظ من خلال حديثنا عن النظم في نظر الخطابي، أن الأمر اتضح أكثر فإنّه و إن كان لم يصل إلى عمق الإدراك الذي وصل إليه "عبد القاهر الجرجاني" إلا أنه أوشك أن يجعله فارس الحلبة و وحيد الأدلة على الإعجاز، فبينما جعل "الرماني" الإعجاز في سبع جهات، فان الخطابي حصره في بلاغة القرآن المعتمدة على حسن نظمه و صياغته، ثم في تأثيره في النفوس و القلوب و الذي يمكن إرجاعه أيضا إلى جانب الصياغة، و الملاحظ أن هذه الفكرة كانت محط اهتمام الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة)، إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس.

لقد كان الخلاف بين الباحثين في مدى تقارب أو تباعد مفهوم النظم عند الرجلين –أي الخطابي و الجرجاني- فمنهم من رأى التقارب الشديد، و منهم من قال أن البون شاسع، لكنه من المعلوم أن الجرجاني توخى في النظم معاني النحو في الكلمات الأمر الذي لم يفعله الخطابي.

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 96

و لعله من المناسب هنا أن نذكر ما قاله "أحمد سيد عمار" صاحب كتاب (نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم)، إذ يرى أن الخطابي اشتغل بالرد على الملحدين و تفنيد افتراءاتهم حول القرآن الكريم و لو أنه فرغ لقضية النظم لبلغ مبلغا لا يقل عما وصل إليه الجرجاني إذ جعل للنظم هيمنة على عناصر الآداء، و في تحلـيلات الخطـابي للنظم القرآني أصدق شاهد[1].

يقول الخطابي: «و أما رسوم النظم، فالحاجة إلى الثقافة و الحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ و زمام المعاني و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان، و هل النظم إلا انتظام كلام القائل ليكون صورة لفظية لمـا يدور في ذهنه و نفسه من معان و مواقف؟»[2].

و بهذا يتضح لنا رأي الخطابي حول فكرة النظم و مفهومه بشكل واضح.

ج- النظم عند الباقلاني: تحدث في كتابه (إعجاز القرآن) عن آراء من سبقوه في إعجاز القرآن سواء من جانب البيان أو جوانب الإعجاز الأخرى، مؤكدا في ذلـك كلـه أن القرآن معجز ببديع نظمه و عجيب تأليفه، و قد كان الرجل عميق الإيمان بالنظم المعجز في القرآن الكريم، فقلما تخلو صفحات مؤلفه من إشارة إلى هذا الجانب متلمسا بطريقة

[1] ينظر: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 96
[2] المرجع نفسه، ص: 139

فنية جوانب هذا النظم المعجز، و يرجع الباقلاني بديع نظمه القرآن إلى وجوه، منها مـــا يرجع إلى جمله، فالقرآن خارج عن المألوف في كلام البشر إذ يخرج عن كـــل أجنـــاس الكلام المعروفة لا هو بشعر و لا هو بنثر و لا هو بسجع، و أن القرآن علـــى تعـــدد أغراضه و مراميه من قصص و مواعظ و أحكام و ترغيب و ترهيب تبقى بلاغته علـــى درجة واحدة من سمو البلاغة، و منها ما يرجع إلى أسلوبه المتضمن كل أجناس الكـــلام البشري من إيجاز و إطناب و حقيقة و مجاز و استعارة و تصريح، و منها ما يرجـــع إلى مفرداته إذ أن القرآن استعمل مفردات في معان جديدة لم تكن مألوفة عند العرب قبـــل الإسلام، و منها ما يرجع إلى حروفه إذ أن كلام العرب بني على تسعة و عشرين حرفا و عدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف، ثمانية و عشرون سورة افتتحـــت بأربعـــة عشرة حرفا و هي نصف حروف المعجم، فان وقع تلك الحروف هذا الموقع يدل علـــى أن القرآن من عند الله تعالى و على أنه بلغ حد الإعجاز[1].

و بجمل القول، فإنّ المشترك بين كل هذه الوجوه هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر و هي القضية الأساسية التي شغلت "الباقلاني" على امتداد صفحات كتابه.

كانت تلك هي المحاولة الأولى للباقلاني على طريق التعليل الفني للإعجاز بالنظم و كانت له محاولة ثانية عن طريق البديع، و خلص في الأخير إلى أن ألـــوان البـــديع لا

[1] ينظر، المرجع السابق، ص: 141

تصلح سبيلا لإدراك أسرار النظم القرآني المعجز، و استمرت محاولات الرجل و بحوثـــه ليصل إلى تقديم نماذج من الكتاب العزيز محاولا تبصير القارئ بجوانب السمو و الروعة فيه، لكن صنيعه هذا لم يتجاوز الأحكام و العبارات الرنانة التي لا تهـــدي القـــارئ إلى شيء محدد[1].

و مثال ذلك قوله تعالى﴿ **وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَ لاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَ لاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ**﴾[2].

يقول الباقلاني « و هي خمس كلمات متباعدة في المواقع نائية المطارح قد جعلها النظم البديع أشد تآلفا من الشيء المؤتلف في الأصل و أحسن توافقا من المتطابق في أول الوضع»[3]، لكنه لم يشرح لنا التباعد في المواقع و التنائي في المطارح و كيف جعلـــها النظم متآلفة، و يعلق على قوله تعالى ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَ مَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ**﴾[4] بقوله: «و هذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر»[5] و لم يوضح لنا لماذا هي أعز من الكبريت الأحمر.

---

[1] ينظر المرجع السابق، ص: 142
[2] سورة القصص، الآية 77
[3] إعجاز القرآن، الباقلاني، دار المعارف، مصر، ط4، د ت، ص: 152
[4] سورة القصص، الآية 81
[5] إعجاز القرآن، الباقلاني، ص: 154

لكن الباقلاني حلل الكثير من الآيات تحليلا جيدا يدل على بصر بالنقد و تذوق للجمال الأسلوبي و ما يمكن ملاحظته أن بمحاولته الأخيرة هذه قد أصبح أقرب إلى إدراك ســـر إعجاز القرآن عن طريق القدرة الفائقة في النظم[1]، كما نلمح عنده كلاما عن الـــنظم أيضا و بصورة أدق في قوله:« إن قائلا: بينوا لنا الذي وقع التحدي إليه؟ أ هو الحروف المنظومة؟ أو الكلام القائم بالذات؟ أو غير ذلك؟ قيل: الذي تحداهم به أن يأتوا بمثـــل الحروف التي هي نظم القرآن منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها»[2]، ثم يضـــيف: « لأن الإعجاز واقع في نظم الحروف التي هي دلالات و عبارات عن كلامه و إلى مثل هـــذا النظم وقع التحدي»[3].

و في الأخير يظهر لنا أن كلمة النظم و إن ترددت في ثنايا كتاب الباقلاني فإنها لم تأخذ عنده طابع المصطلح العلمي الواضح الذي وضعه لها عبد القاهر الجرجـــاني فيمـــا بعد.

د- النظم عند القاضي عبد الجبار: صاحب كتاب (المغني في أبواب التوحيد و العدل) الذي ينقسم إلى ستة عشرة جزءا، و قد عنون أحد فصوله (فصل بيان الفصاحة التي فيها

[1] ينظر: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 141
[2] إعجاز القرآن، الباقلاني، ص: 160
[3] المرجع نفسه، ص: 161

يفضل بين الكلام عن بعض) و في الجزء السادس عشر تكلم فيه القاضي عـن إعجـاز القرآن الكريم و الذي يعنينا من الكتاب هو حديثه عن النظم.

إن الميزان الذي يزن به "عبد الجبار" الكلام الفصيح قـد أخـذه عـن شـيخه "أبي هاشم الجبائي"[1]، إذ يرى «أن بلاغة الكلام ليست من جهة النظم وحده و لا من جهة المعنى وحده أيضا، و إنما يكون في معنى كريم و لفظ كريم»[2]، و المعنى أن النظم إذا أريد به طريقة مخصوصة من طرق التعبير تختلف عن الطرق المعهودة، فانه بهذا المفهوم وحده لا يكون صالحا لمعرفة إعجاز القرآن و يقرر "عبد الجبار" أن الفصاحة لا تظهـر في أفراد الكلام و إنما في ضم الكلام على طريقة مخصوصة و لا بد مع الضـم مـن أن يكون لكل كلمة صفة أي المعنى الذي تؤديه مفردة أو مركبة[3]، أما عن المعاني فيقول: «إن المعاني و إن كان لا بد منها فلا تظهر فيها المزية – و إن كانـت تظهـر المزيـة لأجلها- و لذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر و المعنى متفق»[4] بمعنى أن المعنى تابع للنظم الكلامي.

و من جهة ثانية، يرى "عبد الجبار" بأن روعة النظم و فصاحته و دقـة المعـنى ليست هي كل ما في المعجزة القرآنية و إن كان فيها ما يكفي لتحدي أصحاب البلاغة

[1] هو عبد السلام محمد بن عبد الوهاب، شيخ المعتزلة، ولد سنة 247 هـ و توفي عام 321 هـ
[2] الإعجاز في دراسات السابقين: عبد الكريم الخطيب، ص: 222
[3] المرجع نفسه، ص: 225
[4] المرجع نفسه، ص: 227

و البيان، و لكن ليس كل الناس يعرف العربية على قدر من الفصاحة و البلاغة يدرك ما في فصاحة القرآن و بلاغته من أسرار مذهلة معجزة، فإذا فاته هذا الوجه من الإعجـــاز وجد وجوها أخرى معجزة، و لا يجب أن نفهم من هذا أن القاضي يرفض أن يكـــون النظم مقياسا لحسن الكلام لأنه و إن رفضه بمفهوم سابقه "الباقلاني" – أي قوله بالنظم لذاته – فقد جعل مرجع التفاضل في فصاحة الكلام، أي أن الكلمة لا تعد فصـــيحة في ذاتها بل لا بد في ضم الكلمات أن يكون للمفردة صفة[1]، و هذا ما يؤكد قوله: «و قد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواصفة التي تتناول الضم، و قد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه – أي الكلام- و قد تكون بالموقع»[2].

إذن فهو يرى أنه لا بد من ملاحظة أبدال الكلمة و نظائرهـــا و حركاتهـــا في الإعراب و موقعها في التقديم و التأخير و هنا يقترب "عبد الجبار" من "عبد القـــاهر" في تفسيره للنظم، إذ قال الجرجاني بأن النظم هو توخي معاني النحو.

إن "عبد الجبار" يشير صراحة إلى حركات النحو و ما ترســـم مـــن فـــروق في العبارات، و لا شك أن مثله في ذلك مثل "عبد القاهر" من حيث أنه يريـــد بحركـــات الإعراب معناها العميق و هو النظام النحوي للكلام و ليس مجرد الحركات الظاهرة[3].

---

[1] ينظر المرجع السابق، ص: 227
[2] المرجع نفسه، ص: 151
[3] ينظر: المرجع نفسه، ص: 151

و يمكننا القول في الأخير، إنّ القاضي عبد الجبار خطا بالنظم خطوة أوسع من سابقيه "الرماني"، "الخطابي"، و "الباقلاني"، و انه دنا من "الجرجاني" دنوا شديدا في تفسيره للنظم، كما يمكن القول أيضا أن "عبد الجبار" ليس مبتكرا لنظرية النظم رغم ما صدر منه في هذا الشأن، و الحق أن كتابات القاضي يلف أسلوبها الفلسفة و الجدل و المقولات العقلية الجافة، و لو كان تخلص من ذلك فلربما كان له السبق في ابتكار هذه النظرية[1]، أي نظرية النظم اللغوية.

و في نهاية المطاف، و بعد هذا العرض الموجز عن النظم عند بعض العلماء اللغويين القدامى، فإننا نرى أن النظم قبل الجرجاني قد مر بمراحل متطورة، فمرة يظهر كومضة سرعان ما يلفها الضباب، و مرة أخرى يتساوى مع وجوه الإعجاز الأخرى إلى أن يصير أخيرا المرجع الوحيد الذي يمكن أن تقاس به كل سور القرآن باطراد كما أن النظم تنقل في بيئات علمية متعددة قبل أن يصبح خالصا للنقد.

و المهم أن البحث في سر الإعجاز القرآني من أهم المثيرات التي دفعت النظم بقوة باعتباره من أقوى أدلة الإعجاز إن لم يكن أقواها على الإطلاق حتى استوى على يد "عبد القاهر الجرجاني" نظرية متكاملة لا يقاس بها الإعجاز القرآني فحسب، و إنما تصلح

[1] المرجع السابق، ص: 130

بأبعادها للتطبيق على كل نص أدبي، و بهذا دخلت ميدان النقد من أوسع أبوابه، و فيما يلي وقفة مع الجرجاني و ما تضمنت نظرية النظم اللغوية عنده.

رابعا: النظم عند الجرجاني:

إن الناظر في تطور النقد العربي الكلاسيكي، يستطيع أن يدرك بسهولة أن "عبد القاهر الجرجاني" كان ثورة في الدراسات المتصلة بإعجاز القرآن الكريم ثورة حاولت أن تطيح بكل ما سبقها من نظريات و أن تقدم البديل الذي تراه صحيحا و هـــو نظريـــة النظم[1]، و هذا ما نتناوله بالتفصيل الآن.

عاش عبد القاهر الجرجاني، السني الشافعي، في القرن الخامس للهجرة و توفي على الراجح عام (471 هـــ) و قد جاء إلى حقل الدراسات البلاغية و النقدية و معه كـــل المقومات التي تجعل منه أعمق باحث يتناول نظرية النظم فقد قرأ بإمعان أهم ما كتب في قضية الإعجاز، و أخذ منه ما رآه متفقا مع أصول نظريته، و أضاف إليه الكثير مما جعله بحق صاحب هذه النظرية بدون منازع، و قد سبق الذكر بأن فكرة النظم قد مهد لها من قبل على يد العديد من العلماء.

لقد سارت البلاغة العربية في طريق انفصلت فيه عن النحو و أصبح له علمـــاؤه المتخصصون ثم تطورت الدراسات النحوية العربية على يد أئمة النحو أمثال "الخليل بن

[1] ينظر: مجلة الأقلام، طراد الكبيسي، دار الجاحظ للنشر -بغداد-، العدد 11، السنة 15، 1980

أحمد الفراهيدي" و "سيبويه" الذي يعد كتابه (الكتاب) قرآن النحو، و فيه جمع اللغة و المعاني و القراءات و النحو و الصرف، أما البلاغة فقد تحولت إلى تقسيمات و تعريفات و حدود بعيدة عن النصوص اللغوية و لكن التقاء آخر بين النحو و الصرف من جهة و البلاغة من جهة أخرى تم عند عالم جليل و هو عبد القاهر الجرجاني الذي رأى أن فهم العربية بنحوها و صرفها و بلاغتها واجب ديني لمعرفة الإعجاز في أساليب القرآن الكريم[1].

لقد تابع الجرجاني طريق شيخه "أبي علي الفارسي" و "ابن جني" في اكتشاف النظام العام للغة، فأكد على المهمة الوظيفية لها و التي اعتبرت مرحلة جديدة مع ظهور كتابه (دلائل الإعجاز في علم المعاني).

و يمكن أن نورد هذا التقسيم للدراسات النحوية التي مرت بثلاث مراحل:

أولا: مرحلة الدراسات الوصفية الشاملة و يمثلها "سيبويه".

ثانيا: مرحلة الدراسات النحوية المتخصصة و تمثلها المدارس النحوية.

ثالثا: مرحلة الدراسات الوظيفية في أواخر القرن الخامس الهجري و يمثلها الجرجاني، و قد عمل الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز) على هدم نظرية القائلين

[1] ينظر: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 156

بأن بلاغة الكلام في اللفظ و نظرية القائلين بأن البلاغة في المعنى ليتبع عملية الهدم بعملية البناء بناء صرح نظرية جديدة.

أ- محتوى كتاب (دلائل الإعجاز في علم المعاني) لعبد القاهر الجرجاني:

يعد هذا العرض الموجز لمحتوى كتاب (الدلائل) محاولة لمعرفة الهيكل الأساسي لهذه النظرية اللغوية بشيء من التفصيل المدعم بالأمثلة كما أوردها "عبد القاهر" في كتابه.

بدأ الجرجاني كتابه بتقديم موجز، قال في صدره: « هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو، و كل ما به يكون النظم دفعة...»[1]

و تحدث فيه أيضا عن النظم و عرفه بأنه تعليق الكلم بعضها ببعض و جعل بعضها بسبب من بعض، و هو التعريف الآخر للنظم الذي ذكره في الكتاب و هو أن النظم هو توخي معاني النحو و أحكامه فيما بين معاني الكلم و في آخر التقديم يتساءل "عبد القاهر الجرجاني" عن سر الإعجاز القرآني.

و في مقدمة الكتاب يفيض "عبد القاهر" في فضل العلم عامة و فضل علم البيان خاصة مع جهل الناس بحقائقه و يبين أنه الأداة لمعرفة الإعجاز و لا يقصد من علم البيان

[1] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق و شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، مصر، ط1، 1969، ص: 12

معناه الاصطلاحي المعروف عند علماء البلاغة و إنما يريد به المعرفة بأصول الآداء اللغوي البياني عند العرب[1].

ثم يتحدث في فصل جديد عن خطأ من يزهد في الشعر و ينفر منه ثم يتحدث عن من يزهد في النحو و في العلم بمعاني البيان و الفصاحة و البراعة إذ لابد لكـــل كـــلام يستحسنه الإنسان من أن يكون لاستحسانه إياه سبب معروف ثم يذكر معنى البلاغـــة و الفصاحة و البيان و يقرر أن فصاحة الكلمة المفردة لها أسباب معلومة.

و في فصل آخر يقرر أن نظم الكلام يقتفي فيه آثار المعاني فليس الغرض بـــنظم الكلام توالي ألفاظها في النطق، بل في تناسق دلالتها و تلاقي معانيها على الوجه الـــذي اقتضاه العقل و هذا ما يذهب إليه النقد الحديث، «فاللغة عند النقاد المعاصـــرين حـــين يستعملها الشاعر تصبح لغة شعرية لا لأنها في ذاتها لها هذه الخاصـــية، و لكـــن لأنهـــا خضعت للتجربة الشعرية في نفس الشاعر و مقتضيات التعبير عن هذه التجربة و الشاعر يريد إنتاج تركيب معين من خلال اللغة ذات الطبيعة التحليلية، و إحداث الأثر التركيبي من خلال أداة تحليلية و هذا يمثل أعظم نجاح للشاعر» [2].

و يعرض "عبد القاهر" لوجوه كثيرة عن بلاغـــة اللفـــظ كالمجـــاز و الكنايـــة و الاستعارة و التمثيل، كما يعرض لوجوه أخرى لبلاغة النظم مـــن تقـــديم و تـــأخير

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 13
[2] بذور الاتجاه الجمالي للنقد العربي القديم، رمضان كريب، دار الغرب للنشر و التوزيع، ط1، دت، ص: 85

و فصل و وصل و تعريف و تنكير و استفهام و قصر و غير ذلك، كما يعرض للمجاز العقلي و بلاغته، و يفيض في شرح أسرار النظم في كل الكتاب حتى ليكـــاد يكـــون الكتاب موقوفا على شرح نظرية النظم و التعليق عليها[1].

من جهة أخرى يعرض الجرجاني في كتابه لكثير من المشكلات الأدبية و البيانيـــة و النقدية في عصره و يبدي رأيه فيها مثلا:

أبان في كتابه مدى قيمة عنصر المعنى في النص الأدبي، و مع ذلـــك كـــان رده شديدا على من يقدمون الشعر لمعناه و يقللون من الاحتفال باللفظ حيث يقول: « إنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه لجهلهم بأن المعنى إذا كان أدبا و حكمة و كان غريبا نادرا فهو أشرف بل عابوه من حيث كان من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس و ترجع إلى حقيقته...»[2].

و ينص اثر ذلك أن الصياغة و النظم هما اللذان يجب النظر اليهما في الحكم على الشاعر و الشعر، فمعلوم أن سبيل الكلام سبيل الصياغة و التصوير و أن سبيل المعـــنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع فيه التصوير ثم يستدل بكلام "الجاحظ" في خطـــأ من يقدم الشعر بمعناه حيث يقول الجاحظ: « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 130
[2] المرجع نفسه، ص: 132

و العربي و القروي و البدوي، و إنما الشأن في إقامة الوزن و تخير اللفظ و سهولة المخرج و صحة الطبع و جودة السبك و إنما الشعر صياغة و ضرب من التصوير»[1].

و في هذا السياق يقول "عز الدين إسماعيل": « إن الشاعر لا يكفيه أن يحصـــل على قدر من الأفكار حتى يستطيع أن يقول الشعر فنحن لا نحكم على الشاعر إلا بعـــد أن نقرأ الألفاظ التي كتبها»[2].

و يذهب "عبد القاهر" إلى أنه لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها و المعنى في مثل هذا يراد به الغرض و الذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه نحو أن تقصد شبيه الرجل بالأسد فتقول (زَيْدٌ كَالأَسَدِ) ثم تريد هذا المعني بعينه فتقول (كَأَنَّ زَيْدًا الأَسَدُ) تجعله من فرط شجاعته أنه لا يتميز عـــن الأسد حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي فانظر هل كانت هذه الزيادة إلا بما تـــوخى في نظم اللفظ و ترتيبه[3].

و في موضع آخر من الكتاب يقرر عبد القاهر أن الكلام على ضربين: ضـــرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده و ضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، و لكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغـــة ثم

[1] البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة -مصر-، 1968، ص: 110
[2] الشعر العربي المعاصر و قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية، عز الدين اسماعيل،دار العودة -بيروت-، ط3، 1981 ص: 109
[3] ينظر: دلائل الإعجاز، ص: 168

تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض و مدار هذا الأمـــر علـــى الاســـتعارة و الكناية إذ يقول: « إنك إذا عرفت هذا المعنى فها هنا عبارة مختصرة و هي أن تقـــول المعنى و معنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ و بمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[1].

و قد فهم النقاد نظرية عبد القاهر تلك و توسعوا فيها فقالوا بأن المعنى الذي نجده في معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النواة التي يتجمع حولها طائفة من المعـــاني الثانويـــة و كثير من المهارة الأدبية و هي عبارة عن إطلاق تلك المعاني الثانوية لتؤثر تأثيرهـــا في الخيال فان أسمى ما يصل إليه فن الأدب أن يجعل الإيحاء اللفظي من القوة و الســـيطرة و بعد المدى و الحيوية و القوة بمكان عظيم فالشاعر يستخدم المعنى العقلـــي للألفـــاظ و يستخدم كذلك علاقاتها و إيحاءاتها و صوتها و إيقاعها و الصور الموسيقية و غيرها مما تكونه الألفاظ حين يربط بعضها ببعض[2].

و يتحدث الجرجاني عن اللفظ و أهميته في الآداء و التعبير البياني لكنه نفـــى أن تكون الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو لفظ[3].

---

[1] المرجع السابق، ص: 171

[2] خصائص العربية و الإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، أحمد شامية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، دت، ص:120

[3] دلائل الإعجاز، ص: 257، 297

و الجدير بالذكر هنا أن الرجل تناول موضوع الإعجاز بشكل موجز لأنه مشغول بوضع الأساس الذي يحلل كلام الله الكريم على ضوئه ليعرف إعجازه و يبين عظمته و مترلته في البلاغة و لنا في متن هذا البحث وقفة مع موضوع الإعجاز عنده سيأتي في حينه.

لقد جعل عبد القاهر الجرجاني كتابه (الدلائل) من أوله لآخره خاصا بقضية النظم و بالتطبيق النقدي عليها لأن معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الإعجاز نفسه، و كان كتابه هذا معرضا لنظريته الجديدة حول النظم و التطبيق عليها.

أما في كتابه (أسرار البلاغة) يمكن أن نقول باختصار أنه تحدث عن المعاني الثانوية ذات العلاقة اللزومية بينما تحدث في (الدلائل) عن وجوه النظم و أسراره و أن البلاغة فيه، فبحوثه في كتاب (الأسرار) ترجع إلى الكلمة المفردة من حيث دلالتها على معانيها اللازمة في التشبيه، الاستعارة و غيرها، في حين نجد في كتاب (الدلائل) أنه بحث في الأسلوب و خصائصه و الفروق البلاغية التي تدور حول هذه الوجوه[1].

و خلاصة ما نقوله عن كتاب (دلائل الإعجاز) و فلسفة "عبد القاهر" الجمالية:

[1] خصائص العربية و الاعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ص: 132

- أن اللفظ رمز لمعناه و في ذلك هو يتلاقى مع كل النقاد العـالميين القـدامى و المحدثين و مع "مدرسة الرمزية" في اللغة التي رائدها "فينت" فالكلمة رمز للفكـرة أو التجربة أو العاطفة أو المعنى و قيمتها فيما ترمز إليه و ليست البلاغة فيها وحدها.

- موطن البلاغة في العلاقات الأسلوبية بين الألفـاظ -في رأيـه- فمجمـوع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تكون الصورة و هنا تظهر البلاغـة أو الجماليـة و هذه هي نظرية التحليل اللغوي عند "ديسوسير" و هي نظرية سبق إليها الناقد الكبير "عبد القاهر الجرجاني".

- لا يغفل عن أهمية المعاني الثانوية و دلالتها الجمالية فهي تعطي الأسلوب دلالاته البلاغية و تمنحه قيمة جمالية و كثيرا من المهارة الأدبية، إنما هو إطلاق تلـك المعـاني الثانوية لتؤثر تأثيرها في الخيال، و في هذا يتلاقى عبد القاهر مع النقاد الكبار في الشرق و الغرب على السواء.

و من كل هذه القيم صاغ الجرجاني فلسفته البلاغية التي جعلها محور نظريته التي ربط فيها بين المعنى و اللفظ و بين دلالات الألفاظ الأسلوبية و دلالاتها الثانوية.

و من جهة أخرى نجده يقر بالاتصال الشديد بين اللغة و الفكر، فلا كلام بـلا فكـر و ينشأ الكلام حين نعبر عن أفكارنا فالفكر أصل الكلام و ليس الكلام تعبير عن أفكارنا

بل يشمل العواطف و الرغبات و الانفعالات و بهذا يسير عبد القاهر و طائفة من علماء علوم اللغة في عصرنا، فـــ"جون ديوي" يرى بأن اللغة غير الفكر لكنه يعترف بالصـــلة الوثيقة بينهما، فاللغة تتأثر بالفكر و تؤثر فيه بصورة قوية، فالفكر لا يكون سليما إلا إذا وجد اللغة الدقيقة الواضحة و لا يتم نقل الأفكار إلا إذا فهم الشخص معاني ما يصـــل إليه بالشكل الذي يفهمه الناقل[1].

لقد كشف "عبد القاهر" عن علاقة اللغة بالفكر و آراؤه في ذلك كانـــت آراء "جون ديوي" صورة لها، و إن كانا لم يتعارفا لكنه اللقاء الفكري الذي يشهد بنبـــوغ عبد القاهر الجرجاني الذي عاش في القرن الخامس هجري و التي جعلت آراءه خلاصـــة لبحوث عالم كبير في القرن العشرين[2].

و بعد هذا العرض الموجز لمحتوى كتاب (الدلائل) ننتقـــل الآن لمعرفـــة الهيكـــل الأساسي لهذه النظرية اللغوية بشيء من التفصيل المدعم بالأمثلة كما أوردها الجرجاني في كتابه.

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 141
[2] ينظر: المرجع نفسه، ص: 141

ب–الهيكل الأساسي لنظرية النظم اللغوية:

ربما كان تقديم نظرية الرجل بألفاظه خيرا من شرحها لأن ذلك قد يجنب الرجل الظلم الذي قد يلحق بعباراته أولا، و لأنه يحفظ إيحاءات كلامه ثانيا و لالتزام الموضوعية و الواقعية أيضا و يبدو أن هذه المحاولة ستكون شاقة لأنها تتطلب المحافظة على وحـــدة الانطباع في أثناء عرضها و هذا ما سنحاوله.

هي من أهم النظريات في البلاغة العربية، عرضها الجرجاني عرضا واسعا في كتابيه (الدلائل) و أشار إليها في (الأسرار) و يؤكد "الجرجاني" على أن الفصاحة و البلاغة لا تكون إلا بعد النظم و تركيب الكلام فيه حسب ما يقتضـــيه العقـــل، و أن ارتبـــاط الكلمات ببعضها يتم وفق قوانين النحو و مقتضياته و تقوم النظرية على الأسس التالية:

أولا: الألفاظ تتبع المعاني و هي أوعية لها.

ثانيا: الفصاحة و البلاغة لا تكونان إلا بعد النظم و التأليف و ليس في الكلمة المفـــردة شيء من ذلك.

ثالثا: إن العقل هو الأساس في ترتيب الألفاظ

رابعا: العلاقة وثيقة و تامة بين النحو و البلاغة لأن الكلام هو نظم المفردات حسب ما يقتضيه علم النحو[1].

هكذا يعرف الجرجاني النظم بقوله: « و اعلم...أن لا نظم في الكلم و لا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض و يبنى بعضها على بعض و تجعل هذه بسبب من تلك»[2] و لكن كيف يتم هذا التعليق و يتحقق ذلك البناء و يوجد ذلك السبب؟.

إننا إذا نظرنا في ذلك «علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا من الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول و تأكيدا له بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد الاسم من الأسماء التي ضمنت معنى هذا الحرف و على هذا القياس»[3].

و هذه العلاقات الذي يذكرها ها هنا الجرجاني، ما هي إلا علاقات النحو و أحكامه «فليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو و تعمل

---

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 159
[2] دلائل الإعجاز، ص: 41
[3] المرجع نفسه، ص: 44

على قوانينه و أصوله، و تعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها و تحفظ الرسوم الـــتي رسمت لك فلا تخل بشيء منها و ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ و في الشرط و الجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: جَاءَ زَيْدٌ مُسْرِعًا، فيعرف لكل من ذلك موضعه و يجيء به حيث ينبغي له و ينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا منها ذلك في خاص معناه»[1].

و يؤكد الجرجاني أن ليس هناك كلام يوصف بصحة أو فساد إلا و يرجع ذلك كله إلى معاني النحو و كلامه، و يشير كذلك إلى أمر مهم جدا و هو أنه ليس المهم أن نعرف عبارات النحويين و اصطلاحاتهم النحوية، و لكن أن نفهم مدلول هذه العبارات.

إذن فالنظم يكون بارتباط الكلم بعضها ببعض على وجه تتوخى به معاني النحو و أحكامه، فانه من الطبيعي أن يتأثر النظم بمدى هذا التوخي في المعـــاني و أن يـــرتبط حسنه بدرجة تلك الصحة من الأحكام و أن يؤدي فساد النحو إلى فساد فيه، و يـــدل الجرجاني على صحة ما يذهب إليه فيذكر بيت الفرزدق:

وَ مَا مثلُه في النَّاس إلاّ مُمَلّكاً # أَبُو أُمِّهِ حيٌّ أَبُوه يُقاربه[2]

[1] المرجع السابق، ص: 93

[2] نقلا عن كتاب: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 93

و يعلق عليه بقوله: « إن الفساد و الخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هـذا الشأن على غير الصواب وضع في التقديم أو التأخير أو حذف و إضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يضعه و ما لا يسوغ و لا يصح على أصول هذا العلم»[1]، و يضيف قائلا: « ألا ترى أنه إن قدر في "اشتعل" في قوله تعالى: ﴿وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2] ألا يكون "الرأس" فاعلا له و يكون "شيبا" منصوبا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارا و هكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك».[3]

إن هذه الضروب من أنواع البلاغة، الاستعارة و المجاز و الكناية لا يمكن أن يكون في الكلم المفردة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4] فمن إجراء الاستعارة في كلمة "الظلمات" على أنه أصلا شبه الكفر بالظلمات ثم حذف المشبه و أبقى المشبه به فلا يمكن أن نتصور هذه الصور البلاغية لو فصلنا لفظ "الظلمات" عن الجملة التي جاءت فيها[5].

و لنعرض فيما يلي تحليلا لعبد القاهر الجرجاني عن جمال الاستعارة القرآنية بشكل مفصل لقوله تعالى: ﴿وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ و هو يحللها تحليلا نحويا رائعا

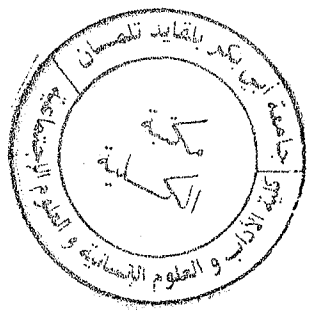

[1] دلائل الاعجاز، ص: 94
[2] سورة مريم، من الآية 4
[3] نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 301
[4] سورة الحديد، من الآية 09
[5] ينظر: نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 301

حيث يقول: "و من دقيق ذلك و خفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى:" و اشتعل الرأس شيبا" لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة و لم ينسبوا الشرف إلا إليها، و لم يـــروا للمزية موجبا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم و ليس الأمر على ذلـــك و لا هذا الشرف العظيم و هذه المزية الجليلة و لا هذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة و لكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعـــل فيـــه إلى الشيء و هو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه و يؤتي بالذي الفعل لـــه في المعـــنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد و تلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني و لما بينه و بينه من الاتصال و الملابسة كقولهم: طاب زيد نفسا، و قرَّ عمرو عينا. و أشباه ذلك مما نجد الفعل فيه منقولا عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه و ذلك أنا نعلم أن "اشتعل للشيب" في المعنى و إن كان هو للرأس في اللفظ... كما أن طـــاب للنفس و قرَّ للعين... و أن أسند إلى ما أسند إليه، و يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك و توخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه و تأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا فتقول: اشتعل شيب الرأس و الشيب في الرأس ثم تنظر هل تجـــد ذلـــك الحسن و تلك الفخامة؟ و هل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فان قلت فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل و لم بان بالمزيـــة مـــن

الوجه الآخر هذه البينونة؟ فان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس –الذي هـــو أصل المعنى المشمول– أنه قد شاع فيه و أخذه من نواحيه و أنه قد استقر به و عم جملته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد و هذا ما لا يكون إذا قيـــل: اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس بل لا توجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة»[1].

بهذا التحليل النحوي الرائع، يكشف "عبد القاهر" عن جمال الاستعارة القرآنيـــة و يفصح عن روعتها البيانية مستندا إلى الأساس النحوي في دراسته للعلاقات القائمة بين كلمات الجملة التي يتصدى لتحليلها، ليثبت بشكل قاطع أن سر جمال العبارة القرآنيـــة و إعجازها ما هو إلا توخي معاني النحو أو بعبارة أصح ما هو إلا جودة النظم.

إن استخدام الألفاظ في النظم القرآني كان محكما غاية الإحكام بحيـــث يعجـــز الصناع من البشر، و إن كانوا قد فهموا معناه و فهموا معاني ألفاظه مفردة و لكن الذي أعجزهم هو ذلك الترتيب و التركيب في الكلام، و هو الذي يتفاوت فيه الصـــناع... كما يتفاوت صناع النسيج في الإبداع و الزخرفة في حياكة ثوب من مادة واحدة، فلا فضيلة و لا مزية– كما يقول الجرجاني– حتى ترى في الأمر مصنعا و حـــتى تجـــد إلى التخيير سبيلا و لا تكون الفصاحة و البلاغة إلا بعد التأليف و النظم، و لـــيس الـــنظم

[1] المرجع السابق: ص: 301

رصف الكلم إلى جانب بعضها و لكنه النحو و معانيه التي لا تكون المزية فيها لأنفسها و إنما سبب الأغراض التي يوضع الكلام لها من جهة و بسبب موقع بعضها من بعض من جهة أخرى[1]، و قد قال الجرجاني في ذلك: «و إذا عرفت أن مدار النظم على معـــاني النحو و على الوجوه و الفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق و الوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها»[2].

لقد أكد الجرجاني مرة أخرى في حديثه عن الفصاحة أن النحو و البلاغة هـــي اللحمة في صناعة الكلام لا انفصال لأحدهما عن الآخر، فالفصاحة و البلاغة في الـــنظم و النظم –كما جاء آنفا– هو مراعاة قوانين النحو، و لا يفوت الجرجاني أن يربط بـــين البلاغة و غرض المتكلم الذي يقصد إليه و المعاني التي يريد إثباتها حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها، يقول في هذا الصدد: « إن البلاغة و الفصاحة و تخير اللفـــظ عبارة عن خصائص و وجوه تكون معاني الكلام عليها و عن زيـــادات تحـــدث في أصول المعاني مثل (زَيْدٌ كَالأَسَدِ) و (كَأَنَّ زَيْدًا أَسَدٌ)»[3].

و يتحدث الجرجاني عن موضوعات أخرى من النحـــو كالحـــذف و الفصـــل و الوصل و التقديم و التأخير و غيرها، مفصلا دورها في نظم الكلام، فمثلا في قول الله

[1] ينظر: الموجز في شرح دلائل الإعجاز، جعفر دك الباب، مطبعة الجليل، دمشق –ط1، 1980، ص: 35
[2] نظرية الاعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 69
[3] المرجع نفسه، ص: 70

سبحانه: ﴿وَ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾ [1] ليس بمخفي أن لتقديم "الشـركاء" حسـنا و روعة و مأخذا من القلوب أنت لا تجد منه شيئا إن أخرت فقلت: " و جعلوا الجـن شركاء الله" هنا نقل الصورة الجميلة و المنظر الرائق و السبب هو أن للتقديم فائدة شريفة و معنى جليلا لا سبيل إليه مع التأخير فبيانه أننا و إن كنا نرى جملة المعنى يحصـل مـع التأخير حصوله مع التقديم، فان تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى و يفيد معه معنى آخر و هو أنه ما كان ينبغي أن يكون لا من الجن و لا غيره فإذا أخر قيل "جعلـوا الجـن شركاء الله" و لم يفد ذلك و لم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره و أن يكون له شريك من الجن و غيره فلا يكون في اللفظ مع تأخير "الشركاء" دليل عليه، و ذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن "الشركاء" مفعول أو جعل الله في موضع المفعول الثاني و يكون الجن على كل ما كان و على تقدير أنه قيل: "فمن جعلوا شركاء الله"؟ فقيل "الجن" فاتخذ الشريك من غـير الجن فقد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن لأن الصفحة غير مجراة على شيء كان الذي يعلق بها من النفي عاما في كلها يجوز أن تكون له الصـفحة و إذا أخـر فقيـل "و جعلوا الجن شركاء الله" كان الجن مفعول أول فالشركاء مفعولا ثانيـا، فـانظر إلى شرف ما حصل من المعنى بأن قدم الشركاء فانه ينبهك لكثير من الأمور و يدلك علـى

[1] سورة الأنعام، من الآية 100.

عظمة شأن النظم و به تعلم كيف يكون الإيجاز به و كيف يزاد المعنى من غير أن يـــزاد في اللفظ»[1].

و من الشواهد القرآنية التي أوردها، قول الله عز و جل: ﴿وَيْكَـــأَنَّهُ لاَ يُفْلِـــحُ الكَافِرُونَ﴾[2]، « يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لو قيل: "إن الكافرين لا يفلحون" لم تفد ما أفاده الأول»[3] و غير هذا من أمثلة التقديم و التأخير، حيث يقول الجرجاني مضيفا: « و إن كانت الصورة في الذي ذكرناه من أنه لا معنى للـــنظم غـــير توخي معاني النحو فيما بين الكلم قد بلغت في الوضوح و الانكشاف إلى أقصى الغاية و إلى أن تكون الزيادة عليه كالتكلف لما يحتاج إليه فان النفس تنازع إلى تتبع كل ضرب من الشبهة يرى أنه يعرض للمسلم نفسه عند اعتراض الشك و إنا لنرى أن في الناس إذ رأى أنه يجري في القياس و ضرب المثل أنه تشبه الكلم في ضم بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو»[4].

و باستطاعتنا أن نقول بعد هذا العرض أن الجرجاني عندما جعل البلاغة في النظم و قرر حقيقة أن النظم لا يكون إلا حسب قوانين النحو و توخيا لمعانيه، وضعنا أمـــام نتيجة هامة و هي أن النحو و البلاغة كلاهما مرتبطان بالنظم، فلا يمكن الفصل بينـــهما

[1] دلائل الإعجاز، ص: 84.
[2] سورة القصص، من الآية 82
[3] دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، سلسلة الأنيس ط 1، 1996، ص: 181
[4] المرجع نفسه، ص: 181

حيث يلتقيان في نظم الكلم و ضم بعضه إلى بعض و لا يمكن دراسة بلاغة الكـــلام إلا من خلال دراسة النحو، و فيما يلي –إجمال– إن صحَّ التعبير لما يقـــرره الجرجـــاني في نظريته:

أولا: أنه لا فصل بين الكلام و معناه و لا بين الصورة و المحتوى.

ثانيا: أن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة و لا في مجرد المعاني.

ثالثا: أن النظم هو توخي معاني النحو و أحكامه و فروقه فيما بين معاني الكلم.

و من هذا المنطلق أخذ يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو مستنبطا الفروق بينها، عارضا الأسرار المزية و الحسن و البلاغة.

إن هذه النظرية و ما اشتملت عليه من تطبيقات واسعة عنده، لم يعرض لها أحد قبله و لذلك جهد في إيضاحها و دفع الشبهة عنها و الرد على المعترضين على ما جـــاء فيها و ذلك من أول كتابه (دلائل الإعجاز) إلى آخره و قد اعتمد على الـــذوق الأدبي الخالص اعتمادا كليا في كل ما يقرره من أحكام مقررا أنه لا يصادق القـــول في هـــذا الباب موقعا من السامع و لا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق و المعرفة و حتى يكون من تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن و اللطف أصلا، و حتى يختلف الحال

عليه عن تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة و يعرى منها أخرى و حتى إذا أعجبته عجب و إذا نبهته لموضع المزية انتبه[1].

لقد أثرى "عبد القاهر الجرجاني" البلاغة العربية و البيان العربي إثراء جليلا في نقد الأساليب و تحليلها و استنباط الفروق و الخصائص فيما بينها و بما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من ضروب الشعر و النثر، و قد اهتدى إلى كل تلـــك الحقائق و غيرها و إن كانت موجودة في تفكير اليونان قديما في علم اللسان الحديث ما يؤيدها، فالفضل الأكبر في الوقوع عليها لمواهبه الفطرية[2].

و خلاصة لما جاء ذكره من تحليلات عبد القاهر الجرجاني للكشف عن وجـــوه الإعجاز في القرآن الكريم، فإننا نطوي كثيرا من المراحل و المواقف دون أن نجعل لهـــا حديثا هنا و ذلك –كما قلنا– لأنه لا يمكن أن نسجل مراحل النظرية مرحلة مرحلـــة و لا أن نقفو خطواته خطوة خطوة، و إنما تعرضنا لما له صلة بالموضوع و ما يمكـــن أن يكون شرحا و تفسيرا أو تحليلا و تعليلا لنظرية النظم.

و فيما سيأتي عرض لرأي الرجل في قضية الإعجاز رغم أن ما جاء في التحليـــل كان فيه الرد واضحا إذ هو الذي جعل البلاغة و النظم وحدهما سر الإعجاز القرآني لا شيء آخر.

---

[1] ينظر نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 125

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص: 125

ج- خصوصية الإعجاز عند الجرجاني:

استعرض عبد القاهر آراء سابقيه في الإعجاز، فرأى أن ما اعتمدوه منها لا يدل على إعجاز القرآن الكريم و ما جاء نفيه بأن يكون الإعجاز في الإخبار عن الغيوب أو في الصرفة أو في الألفاظ أو في المعاني أو في الفواصل و الإيقاع أو في خفة الحروف أو الاستعارات، و فند هذه الآراء بطريقة فنية منطقية ليصل إلى القول بأن إعجاز القرآن العظيم في نظمه و راح يقدم الأدلة التطبيقية على ذلك -كما رأينا- من القرآن و الشعر ثم يأخذ في مناقشتها بذوق واضح و قدرة نامية، و قد طاف "عبد القاهر" بالقارئ من خلال الدلائل في أسرار النظم حتى استوفى مجموعة من جوانب الآداء الفني من تقديم و تأخير و فصل و وصل و غيرها مما رصده البلاغيون و جمعوه فيما بعد في أبواب علم المعاني و حين استوى له تصوره للإعجاز من خلال النظم دون غيره تمثل له أهمية ما توصل إليه و قدرة ذلك المفتاح الرائع الذي وقع عليه فعبر عن ذلك بقوله: «و هو باب من العلم إذ أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة و معان شريفة و رأيت له أثرا في الدين عظيما و فائدة جسيمة و وجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل و إصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل»[1]

[1] المرجع السابق، ص: 159

إن فكرة النظم التي نادى بها الجرجاني تقوم –كما قلنا– على توخي معاني النحو و ما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتجددة و المختلفة[1]، كذلك «كان مما مهد لفكرة النظم التي كانت تطل برأسها في البيئة الإسلامية منذ ظهر الإلحاد في القرن الأول للهجرة ثم أصبحت ظاهرة خطيرة على المجتمع الإسلامي في العصر العباسي ألا و هي التشكيك في القرآن و في إعجازه و على الرغم من أن العلماء على مدى أربعة قرون مثل عبد القاهر الجرجاني، و قفوا أمام هذا التيار الإلحادي يفندون مزاعمه و يبطلون دعاواه و يرسون القواعد التي يقوم عليها، إعجاز القرآن، فان الجرجاني رأى: أن الداء لم يحسم تماما و أن الواجب الديني يفرض عليه أن يجند نفسه و قلمه للدفاع عن هذه القضية التي تتصل بالعقيدة اتصالا مباشرا لأنه إذا كانت الشبهة في أصل الدين كانت كالداء الذي يخشى منه على الروح و يخاف منه على النفس فلا يستقل قليله و لا يتهاون باليسر منه و لا يتوهم مكان حركة له إلا استقصى النظر فيه و أعيد الكي على نواحيه وكالحيوان ذي السم يعاد الحجر على رأسه ما دام يرى به حس و إن قل»[2].

---

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 158

[2] الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2 1968، ص: 134

إذن فالدافع الديني كان سببا مهما و قويا في فكرة النظم عند الجرجاني كما يبدو من القول السابق، و كما يفهم أيضا من دعوته إلى قراءة كتابه (دلائل الإعجاز) من وجهة نظر دينية و عقلية معا، فهو يذكر أنه ما دام الرد على منكري الإعجاز يلزمنا « فينبغي لكل ذي دين و عقل أن ينظر في الطريق إلى البيان و الكشف عن الحجة و البرهان، تبع الحق و أخذ به و إن رأى له طريقا غيره أومأ لنا إليه و دلنا عليه و هيهات ذلك».[1]

و الواقع أننا نلاحظ أن عبد القاهر لا نجده قد حدثنا مباشرة عن أي وجه من وجوه الإعجاز في القرآن، فهو لم يقل إن القرآن معجز في ألفاظه أو في معانيه أو في كذا من وجوه الإعجاز فيه، و لكنه وضع بين أيدينا ميزانا من ذهب نزن به الكلام و نعرف به الجيد و الرديء منه و التفاضل بين الجيد و الأجود، و لو لم يكن لعبد القاهر من فضل هنا إلا أنه دفع عن البلاغة هذا المفهوم الخاطئ الذي كان يذهب مذاهب الجدل اللفظي البعيد عن الذوق الجمالي الجائر على حظ العاطفة و الوجدان منها – أقول لو لم يكن له إلا هذا لكان ذلك فضلا كبيرا يعرف له و يحمد من أجله، فان الذوق الوجداني لجمال و روعة النظم هو الذي يكشف بعض الإعجاز القرآني و أن الذي يبحث عن الإعجاز من غير أن يستصحب هذا الذوق لن يجد بينه و بين القرآن طريقا يصل منه إلى

[1] المرجع السابق، ص: 159

ما فيه من آيات الإعجاز و دلائله، و إذ كنا قد لاحظنا أن الجرجاني لم يذكر الإعجاز القرآني صراحة، فانه قد قال قولا بليغا في ذلك و إلا ما كان ليجهد نفسه و ذهنـــه في الكشف عن أسرار البلاغة في الكلام، أليس ذلك لأنه يريد أن يفتح بهذا مغالق الطريق للنظر في إعجاز القرآن الكريم؟ و لعله من المناسب عرض فيما يلي تعدد صور الـــنظم عنده.

ثامنا: تعدد صور النظم عند الجرجاني:

إننا و إن كنا قد رأينا في ضوء ما سبق أن معاني النحو منتهية فان صور الـــنظم و دقائقه لا حد لها و لا نهاية «لأنها انعكاس لخلجات النفس و نتائج الفكر و هجـــس الضمير و سرح الخيال و لا بد للنظم البارع أن يحمل من خصائص التعبير ما يميز هـــذه الانعكاسات المتعددة و إذا كانت في الفرد الواحد لا تنتهي، فما بالك بها في جميع مـــن يريد التعبير بالكلمة عن كل ما تقع عليه الحواس و تنفعل به النفس و يخضب به الخيال و يتألق به الفكر»[1].

لقد أدرك عبد القاهر ذلك إدراكا واعيا لذلك نراه قد عني بتفصـــيل القـــول في الظواهر الأسلوبية المتعددة التي يتشكل فيها نظم الكلام كالتقديم و التأخير و الحذف و التعريف و التنكير و الاختصاص بـــ "إنما" و بالنفي و الاستثناء و الفصل بين الجمـــل

[1] نظرية الإعجاز القرآني و أثرها في النقد القديم، ص: 169

خامسا: الجانب الفني في قصة الخطيئة:

مما لا شك فيه أن قصة آدم عليه السلام لها مقصد و غاية و فيها أحداث جرت على لسان شخصيات، كما أن القصة لا تخلو من عنصر الحوار، و فيما يلي ســـنحاول اكتشاف هذه العناصر و أهم سماتها.

لقد جاء فيما سبق أن القصة في القرآن متصلة أيما اتصال بمقاصده التي هـــي في أعلى درجات السمو و الرفعة، و المقصد في قصتنا هذه هو بيان اتباع الطريق المســـتقيم و التحذير من إتباع سبيل الشيطان و بذلك مخالفة أوامر الله تعالى.

فللإنسان أن يختار بين الهدى و الضلال، و بين نعيم الجنة و جحيم النار فقد نال إبليس في القصة عقابه الأولي بأن طرده الله تعالى من رحمته و لعنه إلى يوم الدين، ليقذفه في النار مع من تبعه و سار في طريقه.

أما عن شخصيات قصة الخطيئة، فهي كائنة في الوجود حاضرة فيه معروفة لكل من القارئ و السامع، ليس كما هو الحال عند كتاب القصة حيث تكون الشخصيات من صنع أفكارهم و خيالهم، و لقد ذكر القرآن الكريم الملائكة الكرام و آدم و زوجـــه حواء عليهما السلام و إبليس اللعين.

إنّه لمن بديعة النظم القرآني أنه ينقل المشاهد و الأحداث لنا بجميع أبعادها مرتبة موزعة بدقة تدب فيها الحركة و الحياة و قد وردت قصة الخطيئة في سور عديدة من القرآن الكريم، فأسلوبها مختلف باختلاف السورة و نغمها و جرسها.

تبدأ قصة الإنسانية في القرآن الكريم بأول حدث و هو إخبار الله عز و جل الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة ثم محاورة الملائكة لربهم لإزالة دهشتهم و سؤالهم و يحدث بعد ذلك أن خلق الله تعالى آدم و تعليمه لأسماء الموجودات و قد ورد في سورة طه تفصيل لحدث خلق آدم و أن الله تعالى صنعه من طين و يمنحه بذلك تكريما عظيما و في مشهد آخر يخلق الله تعالى حواء و نفهم ذلك من السياق القرآني دون تفصيل لهذا الحدث كيف و أين تم حدوثه، ثم يسكنهما الله تبارك و تعالى الجنة و يتمتعا بنعيمها و في هذه الأثناء الهادئة يتدخل إبليس الذي أغضب الله تعالى برفض أمر السجود ليفسد على الزوجين سعادتهما، و هنا يحدث أمر طارئ ثان –بعدما خرج الشيطان عن أمر ربه في بداية القصة– و هو وسوسة إبليس لآدم و زوجه إذ يلح عليهما في الأكل من الشجرة المنهي عنها و ينجح في ذلك، و تعتبر هذه الحادثة أساسية في تغيير مجرى باقي الأحداث، ثم يصور لنا القرآن الكريم مشهدا آخر بكل دقة و روعة إنها حادثة الأكل من الشجرة و إبداء سوءاتهما الحسية و يا لها من لحظة مؤلمة ليندفعا نحو أوراق الشجر

يغطيان جسديهما، و هنا نحس بتأزم الموقف لكن سرعان ما يتدارك آدم و زوجه هـــذا الخطأ و يتوب الله عليهما و يعاتبهما بقوله سبحانه: ﴿أَلَـــمْ أَنْهَكُمَـــا عَـــنْ تِلْكُمَـــا الشَّجَرَةِ﴾[1]لينفرج الموقف برحمة من الله وحده﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَـــابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

لقد انفرج الموقف برحمة من الله عز و جل غمر بها عبده، لتستمر الأحداث بعد ذلك حيث يطلب إبليس الذي ظن أنه انتصر إرجاءه إلى يوم الدين و تأجيـــل عقابـــه النهائي، إذ أقسم لرب العزة أن يجر وراءه العدد الأكبر من بني البشر، ليجيب الله طلبـــه على أن يعاقبه هو و من معه يوم العرض الأكبر لتنتهي القصة بحادثة أخرى و هي أمر الله تعالى لآدم و زوجه بالهبوط إلى الأرض﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِـــي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِين﴾[3].

إن هذه المشاهد القرآنية الكريمة لأحداث هذه القصة العظيمة ينقلها لنا القـــرآن الكريم بكل أبعادها، فما إن نتلو أو نسمع أحداثها حتى تتمثل أمام أعيننا حية تتحـــرك و تتفاعل فنذهب معها نحس بكل من فيها و الأحداث موزعة منظمة لا تراكم بينـــها

[1] سورة الأعراف، من الآية 22
[2] سورة البقرة، الآية 37
[3] سورة الأعراف، الآية 24

و لا تزاحم بل إن كل حادثة فيها تمثل قصة بحد ذاتها بعيدة كل البعد عن صفتي الإطالة و التفصيل و ذكر الجزئيات.

نتجه الآن إلى عنصرين أساسيين في القصص و هما الزمان و المكان فأحداث هذه القصة تخضع للتسلسل الزمني، إذ أن كلام رب العالمين لا إطالة فيه عكس ما نجـــده في كتابات القصاصين و الله تعالى يعرض الزمان و المكـــان في حـــد مقـــدور و واضـــح و للزمان و المكان أثر كبير في بناء القصة بحيث يجعلها واقعية هذه الأخيرة لها دور كبير في جذب الناس و التأثير فيهم.

لعله يمكن القول أن أحداث القصة بدأت عندما خلق الله تعـــالى آدم و شـــاءت إرادته سبحانه أن يكون خليفته في الأرض.

و الواضح من القصة أن الزمن القصير في بعض أحداثها موجود في مواضع مختلفة من القصة فمثلا حوار الله تعالى مع الملائكة لم يكن طويلا و لحظة سجود الملائكة لآدم و دخول الزوجين إلى الجنة و العيش فيها ليخرجا منها بعد المعصية نحو الأرض، كمـــا نجد لحظة ضعف آدم و عصيانه لم تدم طويلا في حين أن توبته تواصلت علـــى امتـــداد الزمن كله، و في حادثة كشف عوراتهما وقعت في زمن يسير فسرعان ما تداركا الموقف

بفعل الستر و في المقابل من كل هذا يمكن القول بأن عداوة الشيطان لبني البشر ممتدة إلى الأبد.

أما عنصر المكان في القصة فبعض أحداثها تجري على الأرض و في الجنة سكن الزوجان و تمتعا بنعيمها و فيها عصيا ربهما و في الجنة تبدت لهما سوءاتهما و سترا نفسيهما ليعودا بعد كل هذا إلى الأرض[1].

نشير الآن إلى عنصر الحوار في القصة فهو في مواضع مختلفة منها يبينها لنا السياق القرآني و البداية بحوار الله تعالى مع الملائكة إذ يقول عز من قائل: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[2]، و أجابت الملائكة متسائلة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَك** ﴾[3]، و جاء الجواب الإلهي: ﴿**قال إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون** ﴾[4]، و هنا علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة و قال جل شأنه: ﴿**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[5] فردت الملائكة في عجز ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾[6].

---

[1] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 55
[2] سورة البقرة، من الآية 30
[3] سورة البقرة من الآية 30
[4] سورة البقرة، من الآية 30
[5] سورة البقرة، من الآية 31
[6] سورة البقرة، الآية 32

إن هذا الحوار مليء بالصفاء و الصدق و الحب المتبادل المتدفق بين ثناياه انه حوار رقيق يحمل عظيم الرحمة و الحلم يشمل بها الله تعالى ملائكته ليعلمهم و يزيل حيرتهم.

و في موضع آخر من القصة نجد حوارا بين المولى سبحانه و إبليس الـذي بـرر رفضه للسجود بأنه مخلوق من نار و آدم مخلوق من طين قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِـنَ العَـالِينَ** ﴾[1]، فـرد إبليس: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[2]، و هنا تتوتر الأحداث و نلمس غضب الإله لينقطع الحوار ثم يستأنف بعد حادثة عصيان آدم و اعترافه بذنبـه ليحاور إبليس ربه طالبا منه البقاء ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْـوَيْتَنِي لأَقْعُـدَنَّ لَهُـمْ صِـرَاطَكَ المُسْتَقِيم** ﴾[3]، فيجيبه الله عز و جل انك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم.

إن العناصر الفنية في قصص القرآن الكريم و ما تميزت به من الترتيب العجيـب و الدقة المتناهية و خلو من التفصيل و الإطالة و توحد بين الشخصيات و أعمالها و ذكر أسمائها الموجودة في الواقع و غير ذلك بالإضافة إلى لغة و أسلوب السرد الإلهي كلـها أمور اجتمعت في القصة فكانت في غاية الدقة و الروعة و بلغت من قوة التأثير و الحبك

[1] سورة ص، من الآية 75
[2] سورة ص، الآية 76
[3] سورة الأعراف، الآية 16

أعلى الدرجات و لنتحول في الحين إلى دراسة الجانب النظمي و الجمـــالي في القصـــة الخطيئة.

سادسا: الجانب النظمي في قصة الخطيئة:

لقد تناولت في عنصر مضى فكرة النظم عند بعض البلاغيين القدامى و خصصت الحديث عن مُطور فكرة النظم و هو "عبد القاهر الجرجاني" الذي جعل النظم هو توخي معاني النحو و الإعراب، و لنا الآن أن نرى قواعد هذه النظرية الجرجانية مجسدة أمامنا في نموذج قرآني رائع و هو قصة الخطيئة لنرى كيفية نظمها و بلاغتها و لا بد لي أولا أن أعرض لتفسير آيات القصة و شرحها كما جاءت في كتب التفسير مع الحرص دائمـــا على بيان نظم هذه القصة الكريمة.

لقد جاء ذكر قصة الخطيئة في سورة البقرة « إذ قال تعالى: ﴿**وَ إِذْ قَـــالَ رَبُّـــكَ لِلمَلاَئِكَةِ**﴾[1]، فالخطاب هنا موجه للنبي الكريم صلى الله عليه و سلم أي: يـــا محمـــد اذكر لك و لقومك حين قال ربك للملائكة ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـــةً**﴾، أي خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها و هو آدم عليه السلام أو قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن و جيلا بعد جيل، ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا**﴾[2]، أي قـــالوا –

[1] سورة البقرة، من الآية 30
[2] سورة البقرة، من الآية 30

الملائكة- على سبيل التعجب و الاستعلام، كيف تستخلف هؤلاء و فيهم من يفسد في الأرض بارتكاب المعاصي ﴿ وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾[1]، أي يريق الدماء بالبغي و الاعتداء ﴿ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [2]، أي نتزهك عما لا يليق بك ﴿ وَ نُقَدِّسُ لَكَ ﴾[3]، أي نعظم أمرك و نطهر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون ﴾[4]، أي أعلم من المصالح ما هو خفي عليكم و لي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها ﴿ وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[5]، أي أسماء المسميات كلها. قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة و المغرفة ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ ﴾[6]، أي عرض هذه المسميات على الملائكة و سألهم على سبيل التبكيث ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ ﴾[7]، أي أخبروني بأسماء هذه المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾[8]، أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفتهم و الحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة و خصه بالمعرفة التامة دونهم من معرفة الأسماء و الأشياء و الأجناس و اللغات، و لهذا اعترفوا بالعجز و القصور

[1] سورة البقرة، من الآية 30
[2] سورة البقرة، من الآية 30
[3] سورة البقرة، من الآية 30
[4] سورة البقرة، من الآية 30
[5] سورة البقرة، من الآية 31
[6] سورة البقرة، من الآية 31
[7] سورة البقرة، من الآية 31
[8] سورة البقرة، من الآية 31

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾[1]، أي نترهك يا الله عن النقص ﴿إِنَّـكَ أَنْتَ العَلِيمُ﴾[2]، أي الذي لا تخفى عليه خافية ﴿الحَكِيمُ﴾[3] الذي لا يفعـل إلا مـا تقتضيه الحكمة ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[4]، أي أعلمهم ما لم يعلموا ﴿فَلَمَّـا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[5]، أي أخبرهم بكل الأشياء ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْـبَ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾[6]، قال تعالى ألم أنبئكم بأني أعلم غيب السـموات و الأرض ﴿ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[7]، أي ما تظهرون و مـا تسـرون مـن دعواكم أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم. روي أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السـلام رأت الملائكة فطرته العجيبة، و قالوا:ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه منه»[8].

و بهذا التفسير القرآني لآيات القصة تتضح لنا المعاني أكثر فأكثر و نأتي الآن إلى مواطن البلاغة فيها، « فأول ما نجد التغرض بعنوان الربوبية ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾[9] مع

---

[1] سورة البقرة، من الآية 32
[2] سورة البقرة، من الآية 32
[3] سورة البقرة، من الآية 32
[4] سورة البقرة، من الآية 32
[5] سورة البقرة، من الآية 33
[6] سورة البقرة، من الآية 33
[7] سورة البقرة، من الآية 33
[8] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج2، شركة الشهاب للتوزيع، الجزائر، ط5، 1990، ص: 52
[9] سورة البقرة، من الآية 30

الإضافة غلى الرسول عليه السلام للتشريف و التكريم لمقامه العظـيم و تقـديم الجـار و المجرور "للملائكة" للاهتمام بما قدم و التشويق إلى ما أخر.

و انظر إلى قوله تقدست أسماؤه "أنبئوني" فهو أمر خرج عن حقيقته إلى التعجيز و التبكيت، كما نجد المجاز في قوله تعالى: ﴿فَلَمَا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه مجاز بالحذف و التقدير فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى، فتأمـل قولـه سـبحانه ﴿ثُـمَّ عَرَضَهُمْ﴾[1]، هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور و لو لم يغلب لقال "ثُمَّ عَرَضَهَا" أو عرضهن، كما نجد إبراز الفعل في قوله تعالى﴿ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْـبَ السَمَوَاتِ﴾[2]، ثم قال ﴿وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾[3]، للاهتمام بالخير و التنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء و يسمى هذا بالإطناب. و نجد في آخر هذه الآية مـن علـم البديع الطباق و ذلك في كلمتي "تبدون" و "تكتمون"، و في قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ قُلْنَـا لِلمَلاَئِكَةِ اُسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَ إِسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الكَـافِرِينَ﴾ فانظر إلى كلمة "اسجدوا" أصل السجود الانحناء لمن يسجد له و التعظيم و هو في اللغة التذلل و الخضوع، و في الشرع وضع الجبهة على الأرض، أما كلمة "إبليس" فهـي اسم للشيطان و هو أعجمي و قيل انه مشتق من الإبلاس و هو الإياس، أما معنى كلمة

[1] سورة البقرة، من الآية 31
[2] سورة البقرة، من الآية 33
[3] سورة البقرة، من الآية 33

"أبى" فهو امتنع و الإباء الامتناع مع التمكن من الفعل أما "استكبر" فالاستكبار التكبر و التعاظم في النفس. و نستكما ذكر الآيات ﴿ **وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجَنَّةَ وَ كُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ فالرغد في قوله "رغدا" العيش الرغيد الواسع لا عناء فيه، أما قوله تعالى ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾[1] فالزلل و هو عثور القدم يقال زلت قدمه أي زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازا يقال زل الرجل إذا أخطأ و أتى ما ليس له إتيانه و أزله غيره إذا سبب له ذلك أما المعنى في قوله تعالى ﴿ **وَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾[2] فالمستقر موضع استقرار و المتاع ما يتمتع به من المأكول و المشروب و الملبوس و نحوه و كلمة فتلقى التلقي في الأصل الاستقبال تقول: خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم ثم استعمل في أخذ الشيء و قبوله تقول: تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها و قبلتها، أما قوله تعالى ﴿ **فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[3]، فتاب التوبة في أصل اللغة الرجوع و إذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية و إذا عديت بعلى كان معناها قبول التوبة، و نرى في قوله تعالى ﴿**وَ قُلْنَا اهْبِطُوا** ﴾[4] تكرار الأمر بالهبوط للتأكيد و لبيان أن إقامة آدم و ذريته في الأرض لا في الجنة، و في قوله تعالى و "إذ قلنا"

---

[1] سورة البقرة، من الآية 36
[2] سورة البقرة، من الآية 36
[3] سورة البقرة، من الآية 37
[4] سورة البقرة، من الآية 38

صيغة جمع المراد بها التعظيم و هي معطوفة على قوله "و إذ قال ربك" و فيه إلتفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة و إظهار الجلالة، أما كلمة فسجدوا أفادت الفاء أنهم سارعوا في الامتثال و لم يتثبطوا فيه و في الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له و كذلك أتى مفعوله محذوف أي أبى السجود ثم نجد قوله ﴿وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[1] المنهي عنه هو الأكل من ثمارها و تعليق النهي بالقرب منها و لا تقربا لقصد المبالغة عن النهي عن الأكل إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿وَ لاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾[2]، فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه، و في قوله تعالى أيضا ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[3]، فقوله مما كانا فيه أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من النعيم أو الجنة فان من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ منهم نحو مما كانا فيه لتذهب نفس السامع في تصور عظمته و كماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه، أما عبارة التواب الرحيم من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة»[4].

أما عن ورود القصة في سورة الأعراف فبالرغم من أنها نفسها إلا أنك عند قراءتها تحس بأنك تلتقيها أول مرة، «فانظر قوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ

[1] سورة البقرة، من الآية 35
[2] سورة الاسراء، من الآية 32
[3] سورة البقرة، من الآية 36
[4] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج2، ص: 55

الجَنَّةَ ﴾[1]، فقوله يا آدم فيه إيجاز بالحذف أي و قلنا يا آدم،﴿ وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾[2] عبر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها ثم قوله عز و جل: ﴿ وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِين ﴾[3]، أكد الخبر بالقسم و بإن و لام لدفع شبهة الكذب و هو من الضرب الذي يسمى إنكاريا لأن السامع متردد، كما نجد الطباق في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُون ﴾[4] و هكذا»[5].

أما في سورة طه فقد جاءت القصة بأسلوب آخر منقطع النظير لا يدخل منه ملل و لا سأم فانظر قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَ لاَ تَعْرَى وَ أَنَّكَ لاَ تَظْمَأ فِيهَا وَ لاَ تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ فلنتأمل هذا السياق الإلهي و السجع اللطيف غير المتكلف مثل "تشقى تعرى، تضحى"، إلى آخره و « هذه الآية الكريمة بها سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير و ذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع و الضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب و الغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم و تصنيفها و لو قرن بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة

---

[1] سورة البقرة، من الآية 35
[2] سورة البقرة، من الآية 35
[3] سورة الأعراف، الآية 21
[4] سورة الأعراف، من الآية 25
[5] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج2، ص: 55

واحدة على أن في الآية سرا آخر و هو قصد التناسب و لو قرن الظمؤ بالجوع لانتشر سلك رؤوس الآي»[1].

و خلاصة أقول أن هذه تفسيرات قرآنية موجزة لبعض الآيات التي وردت فيها القصة إذ ليس المقام مقام إسهاب لتفسير القصة في مختلف السور الواردة فيها و التفسير ها هنا له دور كبير في توضيح المعاني العميقة السامية فيها معان ساقها المولى عز و جل في طريقة نظم يعجز الإنس و الجن عن مجاراتها ذلك ما سيتبين لنا أكثر من خلال الحديث عن جمال الأسلوب في القصة الذي لا ينفصل عن نظمها.

يقول عز من قائل: ﴿ **وَ يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾.

هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف تضمنت خطابا موجها من الملأ الأعلى إلى آدم و زوجته "أنت و زوجك" يأمرهما فيه أن يسكنا الجنة و يأكلا من ثمارها لينتهي السياق بالنهي عن الاقتراب من الشجرة أو يكونا من المغضوب عليهم ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب بالإنذار و الوعيد و سوء العاقبة فتكونا من الظالمين.

و مما يلاحظ من خلال السياق القرآني في الآية السابقة الذكر كذلك أن الخطاب جمع الاثنين آدم و زوجته عليهما السلام و ذلك ما يتضح من خلال الكلمات التي

[1] المرجع السابق، ص: 56

جاءت بصيغة المثنى فاشتركت حواء مع زوجها آدم في التبعة "فكلا"، لا تقربا تكونا لكنهما استسلما لوسوسة الشيطان ليقعا بذلك في المحظور –الأكل من الشجرة– ليبدي لهما سوءاتهما و سنعلم من السياق أنها سوءات حسية جسدية هذا ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَاكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾.

إن كل لفظة من هذا الآي الكريم تحمل مدلولا عميقا فمثلا قوله تعالى: ﴿**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ فيها إيحاء بتزولهما إلى مرتبة الدنيا بعد المعصية، أيضا لفظة يخصفان توحي بأن العورات هي عورات يخجل الإنسان فطرة من تعريها.

و لنمعن النظر أيضا في قوله عز و جل: ﴿**وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَاكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ**﴾، إلى آخر الآية، لقد سمعا هذا العتاب و التأنيب من ربهما على المعصية و إغفال النصيحة أما كيف كان النداء و كيف سمعاه فهو كما خاطبهما أول مرة و كما خاطب الملائكة ثم إبليس –كما جاء ذكر ذلك سابقا– كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع و أن الله تعالى يفعل ما يشاء و مما يخبرنا السياق أن هذا النداء العلوي يكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد انه يخطئ و ينسى لأن فيه ضعفا

يدخل الشيطان منه كما حدث لآدم و زوجه و هناك خاصية أخرى تتجلى من خـلال عبارات الآية القرآنية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَـابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ هنا إجمال و هو إبهام في حقيقة الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه ثم يزول الإبهام و يتضح الجمال لما استبان المقصود بالكلمات و ذلك بقوله تعالى: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا و إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَـا وَ تَرْحَمْنَـا لَنَكُـونَنَّ مِـنَ الخَاسِرِينَ**﴾[1]، هذه الكلمات وردت على لسان آدم و زوجه ليتوب الله تعالى عليهما إنه الندم و طلب المغفرة و الرحمة من رب العزة و إلا فهي الخسارة الكبرى و قد جاءت مؤكدة بنون التوكيد في لفظة لنكونن و كما لاحظنا من بداية الآيات إلى نهايتـها أن السياق جمع الاثنين آدم و زوجته.

و في الأخير نقول إن روعة الأسلوب الرباني متجلية في كل آي القرآن الكـريم و القصة القرآنية التي بين أيدينا نموذج لذلك و فيما سيأتي عرض لجانب النظم في القصة هذا النظم الذي أخرجه الجرجاني في نظريته و في تحليلات نظم هذه القصـة سـيكون واضحا كلام و تطبيقات الزمخشري (ت 538 هـ) الذي يعد بحق الصـورة المثلـى لنظرية الجرجاني.

[1] سورة الأعراف، الآية 23

يقول أحد المؤلفين حول ما جاء به الجرجاني « أن الأصول البلاغية التي قررهـا الجرجاني كانت منكورة أو قلقة بين معاصريه و لذلك كان يشكو كثيرا من جهل الناس لما يقول و عجزهم عن استيعابه و تمثله فأتاحت تطبيقات الزمخشري لها قوة و مكانـة و ثبتها في البيئة العلمية و أظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القـرآن في صورة دقيقة و شاملة فكان ذلك تأصيلا لهذه الأصول أي تأصيل»[1].

من هنا نلمح جليا أهمية تفسيرات الزمخشري لما جاء به الجرجاني فالمتأمل لكتاب الكشاف يرى أن مؤلفه يذكر النظم و علم محاسن النظم و تجاوب النظم كما يذكر علم المعاني و علماءه و كذا علم البيان و كثيرا من الأمور البلاغية مـن مجـاز و اسـتعارة و غيرها، و جهد الزمخشري تائه في تفسيره.

و الزمخشري يجتهد كما قلنا في توضيح ما في اللفظ القرآني من تلويحات يبـث الحذر و الإشفاق بها في قلوب المؤمنين حتى تستقيم أنفسهم على الجادة و اللفظ القرآني غني بهذه الإيحاءات لأنه كتاب تهذيب و تقويم طريقته في ذلك هي النفـاذ إلى الـنفس البشرية و قيادتها و إقامتها قيمة على نفسها و طريقة التلويح و الإيحاء طريقة لا تخطئ في النفاذ إلى النفس و إيقاظها و التأثير فيها يقول الزمخشري في قوله سبحانه﴿**وَ عَصَى آدَمُ**

[1] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية، محمد محمد أبو موسى، دار التضامن -القاهرة-، ط2، 1982، ص: 38,37

رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[1]، « و بهذا الإطلاق و التصريح و حيث لم يقل و زل آدم و أخطأ و مـــا أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات و الفرطات، فيه لطف بـــالمكلفين و مزجـــرة بليغـــة و موعظة كافة و كأنه قيل لهم انظروا و اعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة و بهـــذا اللفـــظ الشنيع فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات و الصغائر فضلا أن يجسروا على التورط في الكبائر و من هذا تعليل القرآن عقاب الكافرين لما هو أعم من السبب الحقيقي لهـــذا العقاب فالذين استكبروا عن آيات الله لا يدخلون الجنة لعنادهم و القـــرآن لا يعلـــل حرمانهم من الجنة بهذه العلة الحقيقية و إنما يقول: ﴿إِنَّ الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اِسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ ﴾[2]، فيعلل هذا الخلود في النار لإجرام و الإجرام عام يشمل التكذيب و الاستكبار و غير ذلك من الذنوب»[3] و الزمخشري يلوح لهم «يفصح عن سر العقول إلى لفظ الإجرام و كيف يلوح لهم بهذا اللفظ « فقد قال نجـــزي الظـــالمين

[1] سورة طه، من الآية 121
[2] سورة الأعراف، الآية 40
[3] الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة -لبنان-، د ط، د ت، ج4، ص: 224

كما عني بتبيان الفروق الدلالية الدقيقة الناشئة عما بين أساليب المعنى النحوي الواحد من اختلاف في النظم و غيرها[1].

و هكذا اتسعت آفاق نظرية النظم التي رآها عبد القاهر أول الأمر طريقا إلى إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم لتصبح دراسة أسلوبية واسعة النطاق لاتساق التراكيب في العربية على اختلافها و تنوعها، و كانت أولى ثمارها تفسير "الزمخشري" للقرآن الكريم الذي يعد حقا نموذجا تطبيقيا رائعا لها، ثم كان ظهور "علم المعاني" بمباحثه المعروفة في البلاغة العربية التقليدية على أيدي "السكاكي" -صاحب كتاب (مفتاح العلوم)- و رجاله من البلاغيين المتأخرين أثرا آخر من آثارها كما هو معروف عند الدارسين[2].

و خلاصة لما جاء ذكره من تحليلات عبد القاهر الجرجاني للكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فإننا نطوي كثيرا من المراحل و المواقف دون أن نجعل لها حديثا هنا و ذلك -كما قلنا- لأنه لا يمكن أن نسجل مراحل النظرية مرحلة مرحلة و لا أن نقفو خطواته خطوة خطوة، و إنما تعرضنا لما له صلة بالموضوع و ما يمكن أن يكون شرحا و تفسيرا أو تحليلا و تعليلا لنظرية النظم.

---

[1] ينظر: المرجع السابق، ص: 169
[2] ينظر: المرجع نفسه، ص: 171

لا شك في أن عبد القاهر الجرجاني قد جاء بآراء جديدة تعتبر بحق ركيزة للنظرية الجمالية عند العرب، إذ نظر في الكلمة المفردة قبل دخولها في التأليف، و قبل أن تصـــير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخبارا و أمرا و نهيا و إستخبارا و تعجبا فوجد أنها لا تؤدي معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة و بناء لفظة على لفظة[1].

لقد فطن عبد القاهر إلى أن سر جمال الكلام لا يكمن في الألفاظ مفردة و إنما في طريقة تركيبها في الجملة « فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي كلم مفردة، و أن الألفاظ لا تثبت لها الفضيلة و خلافها في ملاءمة معنى اللفظ لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، و مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقـــك و تؤنســـك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك و توحشك في موضع آخر»[2].

و يعني هذا الكلام أن عناصر التركيب هي العناصر الفنية التي يعتمد عليها جمال الكلام، و هي عناصر موضوعية محققة في هذا الكلام و قائمة فيه[3].

و بلغة الجرجاني « فان الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، و لكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة»[4].

---

[1] النقد الأدبي أصوله و مناهجه، قطب سيد، دار الشروق –القاهرة-، ط3، دت، ص: 130
[2] دلائل الإعجاز، ص: 37، 38
[3] ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين اسماعيل، دار الفكر –القاهرة-، ط3، 1974، ص: 120
[4] دلائل الإعجاز، ص: 120

و على هذا النحو وضع الجرجاني أساسا عاما للنظر في اللغة، و هو ألا نحكم على شيء داخل العمل الفني حكما مستقلا « فلا جمال في اللفظ من حيث هـــو صـــوت مسموع، و حروف تتوالى في النطق و إنما يكون ذلك لما بين الألفاظ مـــن الاتســـاق العجيب»[1].

و يتصل هذا القول بالمقولة الجمالية المعاصرة التي ترى أن الجملة في القصـــيدة أو العمل الأدبي ليست جميلة إلا بقدر تناسبها و تلاؤمها مع الأفكار و الجمل الأخرى التي ترتبط معها بعلاقة يمكن إدراكها.[2]

هذا ما طرحه عبد القاهر – و جاء شرحه فيما سبق – إذ رأى أن الألفاظ ينبغي أن تقدر في علاقاتها بجميع العناصر الأخرى و أن جمالها يتوقف على موقعها في الجملـــة « فمعنى أية كلمة لا يمكن أن يتحدد إلا على أســـاس علاقاتهـــا بمـــا يجاورهـــا مـــن الألفاظ»[3].

و يمكننا القول بعبارة مختصرة أن النظم عند عبد القاهر الجرجـــاني هـــو البنيـــة التركيبية للنص بداية من الكلمة و تمددا حتى النص كله[4].

---

[1] المرجع السابق، ص: 120
[2] ينظر: بذور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم، ص: 125
[3] المرجع نفسه، ص: 126
[4] ينظر: المرجع نفسه، ص: 126

لعل ما نلاحظه في نظرية الجرجاني أنه نبه بوجه خاص إلى وحدة اللفظ و المعنى في العبارة، و وجه ائتلافهما معا، معارضا نظرية الجمال في اللفظ المفرد و ذكر أن المعنى أسبق من اللفظ في الذهن و أن ترتيبها فيه هو الذي يسوق إلى تنسيق اللفظ في العبارة و أن سر الجمال فيها مجتمعة في نسق فني خاص، يدل على ذلك قوله: « و قالوا "لفظة متمكنة و مقبولة" و في خلافه "قلقة و نابية مستكرهة"، إلا و غرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه و تلك من جهة معناها، و بالقلق و النبو عن سوء التلازم، و أن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها، و أن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها»[1].

و يضيف « و حسن الدلالة و تمامها فيما كانت له دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى و أزين و آنق و أعجب بأن تستولي على هوى النفس، و تنال الحظ الأوفر من ميل القلوب»[2].

و الذي لا شك فيه —كما رأينا ذلك مسبقا- أن الجرجاني « يربط الامكانات النحوية بحركة اللغة و تطورها....فتجميع عناصر الكلمات المفردة لا بد أن يتم بالتآلف

[1] دلائل الإعجاز، ص: 122
[2] المرجع نفسه، ص: 127

من حيث الصوت، و من حيث الدلالة، و من حيث التركيب ليأخذ صورة النظم الكامل»[1].

و نفهم من هذا أننا حينما نقول الشعر، لا نقصد من هذا القول ما يمكن أن يفهمه المفسر اللغوي حسب المفهوم المعجمي أو ما يمكن أن يفهمه النحوي من حيث اللغة اشتقاقيا و تركيبيا، إنما نعني بلغة الشعر طاقة القصيدة الشعرية و إمكانياتها[2].

و يتأكد من هذا كله أن لا جمال للكلمات منثورة هكذا دون ترابط بل إن الجمال الذي تأنسه يرجع إلى علاقات الكلم بعضها لبعض و بتعبير أوضح فان عبد القاهر يؤكد على أن الجمالية الحقيقية للفظ لا تأتيه من كونه لفظا مفردا أو صدى صوت بل من كونه جزء من تركيب ذي دلالة أو وحدة في مجموع كلمات يفيد معنى من المعاني.

إن ما انتهى إليه من أن النظم —لا اللفظ و لا المعنى- هو مجال التفاضل بين كلام و كلام، هذا الرأي هو في ذاته مقطع القول في مبحث الإعجاز فالصورة الكلامية أو البيانية هي التي ينبغي أن تكون في معرض النظر عند الموازنة و المفاضلة بين أساليب القول و البيان، و بالقدر الذي يكون في الصورة من صحة المعنى و دقته و جمال اللفظ

[1] التفكير النقدي عند العرب، عيسى علي العاكوب، دار الفكر المعاصر -بيروت-، ط1، 1997، ص: 139
[2] لغة الشعر العربي الحديث مفهوماتها الفنية و طاقاتها الإبداعية، سعيد الورقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1979، ص: 64

و اتساقه، يكون في الصورة من الفضل و الجودة بين الكلام و القرآن الكـريم –علـى هذا– صور من صور البيان و لكن أي صورة؟ و ما مكانها؟.

إن ذلك يحتاج إلى النظر في القرآن كله لنطلع على وجوه الحسن فيها و نفتش عن مواطن الجمال منها في كل كلمة بل في كل حرف لنتحقق من أن الصورة القرآنية كائن حي سوته يد القدرة الإلهية على أتم صورة و أكملها. و الجرجاني نظر في بعض آيـات الكتاب الكريم و أرانا بعض ما وعى نظره منها و ما اهتدت إليه بصـيرته النافـذة إلى وجوه الحسن و الروعة فيها، فما علينا بعد هـذا إلا أن ننظـر في كتـاب الله تعـالى و نستحضر القلب و العقل بكل جدية و إخلاص، الأمر الذي يتطلبه البحث العلمـي كذلك.

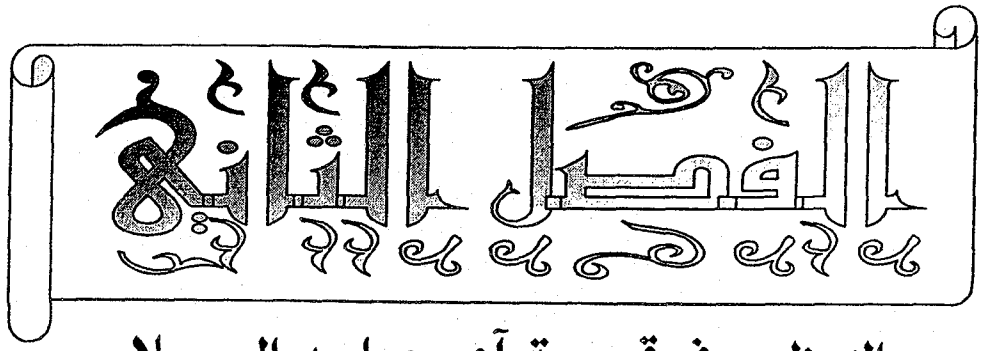

النظم في قصة آدم عليه السلام

1- القصة القرآنية

2- مفهوم التصوير الفني في القصة القرآنية

3- قصة الخطيئة

4- الجانب الفني في القصة القرآنية

أ- رسم الشخصيات

ب- رسم الأحداث

ج- المكان و الزمان

د- الحوار

5- الجانب الفني في قصة الخطيئة

6- الجانب النظمي في قصة الخطيئة

أولا: القصة القرآنية:

إن القصة القرآنية جزء ثابت في القرآن الكريم تلتحم به و لا تنفصل عنه « إنهـــا إحدى معجزات القرآن الخالدة التي تدرك طريق البصيرة»[1].

و حقيقة ذلك أن القصة القرآنية بما تحويه من معاني الخير و الفضيلة، و من ضروب الفقه و التشريع و دقائق العقيدة و العبادة، و من روعة اللفظ و متانة الأسلوب و سمو التعبير و من عذوبة النظم و تزاحم المعاني تؤكد حقيقة الإعجاز القرآني[2].

لقد نال موضوع القصة القرآنية اهتماما بالغا لدى الدارسين فمنهم من عالجهـــا من زاوية العظة الخالصة و منهم من درس الوجه البياني فيها و أجمعوا على أن القصـــة القرآنية تحمل منهجا فنيا كاملا بالإضافة إلى كونها مشرعة و بانية للفـــرد و المجتمـــع و كما أنه لو أردنا مدرسة للبلاغة و فن التعبير البلاغي لا نجد خيرا من مدرسة القرآن الكريم، كذلك الشأن بالنسبة لفن القصة.

و جاء فيما سبق ذكره، أن القصة القرآنية إحدى وسائل القرآن العظيم لتبليـــغ الدعوة و تثبيتها، و من هنا فان للقصة أغراضا كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصـــر إثبات وحدانية الله تعالى و التبشير و الإنذار، و بيان نعم الله تعالى على أنبيائه و أصفيائه و تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان و إبراز العداوة الخالدة بينه و بينهم منذ خلق أبيهم

[1] القصص القرآني (إيحاؤه و نفحاته)، فضل حسن عباس، ص:43
[2] ينظر، المرجع نفسه، ص: 43

آدم عليه السلام، «و إبراز هذه العداوة عن طريق القصة كان أروع و أقوى و أدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر» [1].

و القرآن الكريم جاء في معظمه قصصا جليلا، فورد فيه قصص عن الأنبياء الكرام كقصة آدم و يوسف و موسى و عيسى و صالح و هود و غيرهم عليهم جميعا أفضـــل الصلاة و السلام، كذلك نجد من أخبار الصالحين قصة أصحاب الكهـــف و الأمثلـــة كثيرة.

و ما نجد أيضا في القصة القرآنية من رونق الأسلوب و بديع الـــنظم و جمـــال الصورة يقودنا للحديث عن فنيات التصوير فيها و تحديدا قصة سيدنا آدم عليه الســـلام و سأعمل جاهدة على كشف ما تحويه هذه القصة من روعة النظم و جماله سواء مـــن خلال عناصرها الفنية أم من حيث نظمها.

ثانيا: مفهوم التصوير الفني في القصة القرآنية:

إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه و سلم لتبلغ به رسالته إلى الإنسانية جمعاء، اقتضت حكمته تعالى أن يجليه في هيئة لا تخلو من متعـــة فاصطفى له من الأسلوب ذلك القالب التصويري الذي يبرز الكلام أبـــدا في صـــورة

[1] المرجع السابق، ص: 45

مستجدة تنضح بيانا و جدة و ابتكارا و تزداد توهجا كقطعة ألماس براقة تشع من كل جانب كلما صقلت صفحتها بمحك العقل و التدبر.[1]

و يرى بعض النقاد أن الأسلوب القرآني كله هو أسلوب تصويري، و في هـــذا الشأن يقول جابر عصفور في معرض حديثه عن البلاغيين العرب القدامى: «إن الرماني و ابن جني و العسكري و غيرهم من البلاغيين القدماء يتعاملون مع فكـــرة التصـــوير بشكل جزئي ضيق حيث يقصرون التصوير على أنماط الاستعارة و التشبيه فحسب مع أن الفكرة يمكن أن تكون أعم من ذلك و أشمل، لو نظرنا إلى الأسلوب القرآني كله على أنه أسلوب تصويري».[2]

أما مصطفى ناصف فيذهب مذهبا نفسيا متكئا فيه على عنصر التلقي، إذ يـــرى بأن جانبا كبيرا من بلاغة القرآن، و قدرتها على التأثير ترتد إلى أسلوبه الخاص الـــذي يصور المعاني للمتلقي و يمثلها لمخيلته عن طريق التوسل بصورة حسية أو بلغة المنظـــور المشاهد و العيني، التي تحيل المفروضات في الذهن و تحققها و تقدمها كما لـــو كانـــت أشياء واقعة مشاهدة.[3]

---

[1] الصورة الفنية في القرآن الكريم، دكتوراه الأستاذ محمد طول، إشراف د. رضوان النجار، تلمسان، 1995، ص: 32

[2] الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي، جابر أحمد عصفور، دار الثقافة للطباعة و النشر –القاهرة-، ط1، 1974، ص: 321

[3] الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس –بيروت-، ط3، 1983، ص: 77، 84

إن التعبير بالصورة يعني التعامل مع الحس، و بتعامله هذا يكـــون أكثـــر تـــأثيرا و جمالا و إقناعا، لأن الفكرة أو الخيال إذا لم تتلبس «لحما و عصبا و دما فإنها لن تعدو أن تكون جدلا صرفا أو تهويما في الضباب»[1]، و بالتشخيص الحسي للمعنى تتجـــاوز الصورة السقوط في هاتين النهايتين.

و القرآن الكريم كتاب أنزل للناس كافة للعرب و لغير العرب، لينال كل منـــهم حظه من الفهم و يتأثر به كل حسب مستوى إدراكه و لعل ذلك يرجـــع إلى أســـلوبه التصويري الذي ينطق الجماد و يجسد الأفكار و يقدم المحتوى عبر الســـمع و البصـــر و الذوق و الشم و اللمس، ذلك أن أكثر الأشياء ثباتا بالذهن و أكثرها وضوحا تلـــك «التي نستطيع أن نبصرها و نلمسها و نسمعها و نتذوقها و نشمها»[2]، و لذلك قيـــل "مَنْ فَقدَ حِسّاً فَقَدْ فَقَدَ عِلْمًا".[3]

إن ظاهرة التصوير الفني هي أبرز ما تكون في القصة القرآنية كغرض من أغراض التعبير، و هي من أهم الخصائص الفنية في القصة كذلك، فبواسطته تصبح حادثا شخصيا يقع و مشهدا حيا يجري و حركة فنية يقوم بها أبطال القصة و شخوصها، و لترد هـــذا الرأي إيضاحا بقول "سيد قطب": « إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القـــرآن

[1] مقال بمجلة المشكاة، تقديم لديوان حي على الفلاح، عماد الدين خليل، ع9، 1988، مجلة ثقافية فصلية -وجدة-، ص: 64
[2] مقدمة لدراسة الصورة الفنية، نعيم اليافي، مطبعة وزارة الثقافة و الإرشاد القومي -دمشق-، ط1، 1982، ص: 74
[3] البرهان في علوم القرآن، ج3، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ص: 139.

فليس هو حلية أسلوب و لا فلتة تقع حينما اتفق، إنما هو مذهب مقرر و خطة موحدة و خصيصة شاملة و طريقة معينة يتفنن في استخدامها بطرائق شتى و في أوضاع مختلفة و لكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة قاعدة التصوير الفني »[1].

و لعل المعنى الذي نفهمه من هذا الكلام، أن التصوير الفني ليس مجرد ديباج يتسم به الأسلوب القرآني و لكنه طريقة و خطة محددة، تستخدم بطريقة بارعة و في أوضاع مختلفة، و بشرح لنا سيد قطب أكثر هذا التصوير فيقول: « التصوير في القرآن هو تصوير باللون و تصوير بالحركة و تصوير بالتخيل كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل و كثيرا ما يشترك الوصف و الحوار و جرس الكلمات و نغم العبارات و موسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين و الأذن و الحس و الخيال و الفكر و الوجدان»[2].

فالواضح أن التصوير في القرآن ينقل لنا مشاهد حية بلونها و حركاتها و نغماتها و جميع مراحلها، يتم كل ذلك باتحاد الحواس و الخيال.

و يمضي سيد قطب موضحا هذا الأمر أكثر يقول: « و هو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء لا ألوان مجردة و خطوط جامدة، تصوير تقاس فيه المسافات بالمشاعر

[1] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط7، 1982، ص: 38
[2] المرجع نفسه، ص: 38

و الوجدانات، فالمعاني ترسم و هي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة»[1].

و يتضح من هذا القول أن القارئ ما يكاد يتلو نصوص قصة من القصص القرآنية حتى ترتسم أمام عينيه المشاهد و حوادثها و مناظرها معروضة عرضا فنيا متناسقا قويـــا و يذهب بخياله مع هذه المشاهد مستمتعا متخيلا متأملا« فأبطال القصة تدب فيهم الحياة و يدبون أمام القارئ و يتحركون و تظهر علامات الحياة على ملامحهـــم و حركـــاتهم و تعابيرهم....و كأنهم أمام القارئ على خشبة المسرح»[2].

و كل هذا يتم بأسلوب رباني عظيم، هذا الأسلوب بمختلف جوانبه البلاغية منها و تركيب العبارات و المعاني السامية و الإيحاءات ذات الدلالة القويـــة، يضـــع أمامنـــا النموذج التام لكمال البناء و التلاحم بين أجزاء القصة.

و خلاصة نقول، انه لا مجال للشك في روعة التصوير القرآني و الأسلوب الإلهي الذي أعجز قدرة البشر عن الإتيان بمثله، فانفرد بكل السمو و الرفعة و ما دام الاختيار وقع على دراسة قصة آدم عليه السلام لتكون ميدانا لتطبيق نظرية النظم اللغوية، فلا بد لنا أولا أن نعرض أحداث هذه القصة الجليلة.

---

[1] المرجع السابق، ص: 40

[2] نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي، شركة الشهاب، الجزائر، ط2، 1988، ص: 233

ثالثا: قصة الخطيئة:

يحسن بنا في البداية أن نضع ملخصا لهذه القصة فنقول:

إن قصة آدم لما يتأملها القارئ لا يملك إلا أن يتذكر تاريخ البشر الأزلي في قصة الوجود الأولي كما يرسمها القرآن الكريم، ممثلة في حادثة أبينا آدم عليه السلام مع حواء.

و هي قصة حملت بذور الحياة الإنسانية كلها حيث ثنائية الحياة، ذكر و أنثـــى و حيث الرجولة و الأنوثة، و القوة و الضعف و الحكمة و العاطفة و الشفقة و الخنوع و المرأة هي المرتكز في ذلك.

فحواء كانت هي اللحظة الحساسة في تاريخ البشر منذ تواجه معهـــا آدم علـــى مشهد التفاحة و هي تقدمها له ليأكل منها، و هو يضعف أمامهـــا ناســـيا تحـــذير الله سبحانه و تعالى له من الفاكهة المحرمة، و أخيرا ينسى نفسه فيأكـــل الحـــرام و يـــأثم و عندئذ يحكم الله تعالى عليه بالهبوط إلى المنفى (الأرض) و يغادر آدم فردوسه مخطئا آثما نادما على ما بدر منه، و لكنه يهبط بوعد من الله بالعودة إلى هذه الفردوس إن هو عمل بشرط العودة.

و من وراء هذا كله كان إبليس يرفع رايات الشهوة و الجسد و يغـــري بـــالإثم و يفتح الطريق إليه بكل قواه و وسائله.

و من هنا كانت قصة آدم بمثابة كينونة ولادية لحالة فنية، هذه الحالة الفنية هـــي تكون لغوي لحس غير عادي عن الوجود أو بسبب الوجود.

و مهما يكن فان قصة الخطيئة هي واحدة من بين قصص القرآن الكريم الكـــثيرة و التي تنوعت بين قصص الأنبياء و الصالحين و الكفار و غيرهم، و قد جاء ذكر سيدنا آدم و زوجه حواء عليهم السلام في قصة الخطيئة في مواضع شتى من القـــرآن الكـــريم إجمالا في سورة البقرة، و تفصيلا في سورة الأعراف كما تكررت أيضا في سورة طـــه و الحجر و في غيرها من المواضع القرآنية.

إن كلمة "آدم" لها ما لها من معنى دقيق عظيم « فالإنسان الأول هو آدم كمـــا اتفقت على ذلك جميع الشواهد و البراهين، و قد سماه الله تعالى آدم لأنه خلقه من أدمة الأرض، و الأدمة في اللغة إنما هي مشبهة بلون التراب»[1].

و يحكي لنا القرآن الكريم قصة عمارة الأرض بعد أن أتم الله خلقها و خاطـــب الملائكة قائلا سبحانه: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[2].

و من الطبيعي أن لا يعلم الملائكة حكمة الخالق من هذا الاســـتخلاف كمـــا لم يعرف سبب الخلق أصلا، و قد أدخل في روعهم بعدما تأكد لهم أن آدم و دريته سوف

[1] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، دار الكتب اللبناني -بيروت-، ط1، 1980، ص:35
[2] سورة البقرة، من الآية 30

يكونون دون الملائكة تقوى و طاعة و أقل عبادة و ضراعة، أن يسألوا الخـالق القـادر مستفسرين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]، فقد حصل هذا الاستشفاف للغيب من قبل الملائكة و تكلموا بما سوف يكون عليه الإنسان و ما تترع نفسه إليه، و ما أكدته الأحداث و التواريخ المتعاقبة على مر الدهور، بحيث ما خلت حقبة منها بلا فساد و لا حروب و لا سفك للدماء[2]، و جاء جواب الله و هو العالم المستأثر بالغيب: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3]. فاطمأنت قلوبهم و زالت حيرتهم بعد هذا الجواب الهادي لأن سؤالهم لم يكن اعتراضا على فعل الله و لا شكا في حكمته أو طعنا في خليفته، و كيف يكون ذلك و الملائكة هم أمناء الله المقربون، و عباده المكرمون لا يسبقون بالقول و هم بأمره يعملون.

و علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ﴿و عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[4] و المراد بهذا التعليم إنما هو مسميات الأشياء لا اللغات، و تعبير القرآن الكريم بكلمة "الأسماء" يراد به أنه قد أطلق الاسم و أراد المسمى، كما يدل على ذلك الواقع و آدم عليه السلام بما حوى رأسه من تركيب في الأجهزة و ضبط في الأنسجة هو مخلوق كامل قادر بعد زرع

[1] سورة البقرة، من الآية 30
[2] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 36
[3] سورة البقرة، من الآية 30
[4] سورة البقرة، من الآية 31

الحواس الخمس فيه و إعطاء كل جزء من أجزاء هيكله الظاهرة و الخفية وظيفة خاصة يؤديها، قادر على أن يربط بين الوقائع و المعلومات و فهم حقيقة الأشياء و تسميتها[1]، و لكي يدلل الله سبحانه و تعالى على تلك القدرة، عرض الأسماء على الملائكة قائلا: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾[2]، و دهش الملائكة و حاولوا البحث في طوايا أنفسهم عن سابق علمهم، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلا فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[3]، و في عجزهم هذا دلالة أخرى عن المكانة التي أراد الله تعالى لسيدنا آدم أن يسمو بها على الملائكة و يكون جديرا بالخلافة.

و من خلال هذه المكرمة، اغترف آدم من فيض ربه، و اقتبس من نور علمه فبعدما أعطي القدرة على المعرفة أمره الله أن يخبر الملائكة بما عجزوا عنه فناداهم ربهم ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ و أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[4]، و ليس هذا فحسب بل لقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة، و أراد الله عز و جل أن يكشف حقيقة إبليس فأمره بالسجود لآدم عليه السلام لكنه رفض و استكبر حتى يكون مثالا للكافرين اللاهثين وراء الباطل

[1] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 37
[2] سورة البقرة، من الآية 31
[3] سورة البقرة، من الآية 32
[4] سورة البقرة، من الآية 33

و الشر فقال تعالى: ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾[1].

و قال جل شأنه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ﴾[2]، فرد إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[3].

لقد غاب عن إبليس أن أصل النار من الأرض، « لكن الحقد أعماه و شط به الاستعلاء ليجسد الصورة الأخرى للخليقة في ضلالها و عمى بصيرتها»[4]، و حل العقاب و ما أقساه من عقاب يناله مخلوق، و هل أفظع من اللعنة و أن يطرد من الجنة و يعيش تلك اللعنة إلى يوم الدين.

كان آدم يتابع ما يحدث حوله، و يحس بالحب و الرهبة و الدهشة، كان حبه لله الذي خلقه و كرمه، و كانت رهبته من غضب الخالق حين طرد إبليس من رحمته، أما دهشته فقد كانت من هذا المخلوق العجيب الذي كرهه دون أن يعرفه، و علم آدم و هو يستمع إلى حوار الله تعالى مع إبليس أن هذا المخلوق يتصف بالجحود و أنه

---

[1] سورة البقرة، الآية 34
[2] سورة ص، الآية 75
[3] سورة ص، الآية 76
[4] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 37

سيكون عدوه الأبدي، و لكن حلم الله أوسع و عنايته أجمل، فقد ترك لإبليس مجـــالا للتصرف.[1]

و ذات يوم استيقظ آدم ليجد عند رأسه مخلوقا من نوع آخر كان يحـــدق فيـــه بإمارات المحبة و التعاطف، إنها حواء أنشأها الله تعالى من نفس آدم و ضـــلعه« فـــأوقع الرب الإله سباتا فنام فاستل إحدى أضلاعه و سد مكانها بلحم و بنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم»[2]، و سألها آدم من أنت و من أيـــن جئـــت؟ فقالت: جئت من نفسك، خلقني الله منك و أنت نائم، و آنس آدم اطمئنانا في شعوره و عاش معها في الجنة، و أحل الله لهما كل ما فيها إلا ثمرة شجرة واحدة نهاهما الله عنها قال الله تعالى: ﴿ **وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجَنَّة فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِـــئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾[3]، غير أن آدم إنسان ينسى و يضعف عزمه و صدق قول الله تعالى فيه: ﴿ **وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِـــدْ لَـــهُ عَزْماً** ﴾[4]، و من هذا الضعف دخل إبليس ليوسوس للزوجين بأنه ليس من سوء لـــو أكل من تلك الشجرة « و حار آدم و ألحت حواء في القول حتى ظن أن تلـــك هـــي

[1] ينظر، المرجع السابق، ص: 37
[2] المرأة و الأسرة في حضارات الشعوب و أنظمتها، عبد الهادي عباس، ج1، دار الأطلس، ط1، 1987، ص: 53
[3] سورة الأعراف، الآية 19
[4] سورة طه، الآية 115

شجرة الخلد حقا»[1]، فقال إبليس في مكر و دهاء: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾[2]، و نسي آدم وعد ربه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَ لاَ تَعْرَى * وَ أَنَّكَ لاَ تَضْمَؤُ فِيهَا وَ لاَ تَضْحَى﴾[3] و نسي تحذير ربه له: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[4]، ليخرج الزوجان من نعيم الاستقرار إلى جحيم الاضطراب، و من الشبع إلى الجوع و من الستر إلى العري، و نجحت المكيدة الأولى في حياة الإنسان، و ظن إبليس أنه انتصر بلؤمه و أنه هزم آدم لطيب نفسه و قلبه و أحس آدم و زوجه بالألم و الخجل، و اعتراهما الحزن على الفور و سرعان ما زال ستر النور عنهما و بدت لهما سوءاتهما الحسية، و كان ذلك إيذانا باستيقاظ دوافع الجنس في كيانهما، فأسرعا إلى الورق الشجر يقطفان منها و يغطيان جسديهما[5]، و هنا يصف لنا القرآن الكريم ذلك المشهد حيا: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[6]، و في هذه الأثناء تدارکتهما خصيصة

[1] المرأة و الأسرة في حضارات الشعوب و أنظمتها، ص: 39
[2] سورة الأعراف، من الآية 20
[3] سورة طه، الآيتان 118، 119
[4] سورة طه، الآية 117
[5] ينظر: آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 55
[6] سورة الأعراف، الآية 22

الإنسان التي تفوق بها على الشيطان، الاعتراف بالذنب و التوبة الخالصـــة لله و نهـــض الزوجان من عثرتهما بما ركب الله في فطرتهما و أدركتهما رحمة الله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [1] و ما كان لإبليس بعد هذا إلا أن يطلب من ربه أن يمد له بالحياة إلى يوم البعث حتى يغوي من يغوي عـــن الطريـــق المستقيم، و أجابه الله تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُـــومِ** ﴾[2] ليكون التصميم على الثأر من ذرية آدم على مدى الدهور: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[3] مترصدا لهم و لآتينهم من بين أيـــديهم و مـــن خلفهـــم « فقال الله عز و جل لإبليس: ﴿**وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـــوْتِكَ وَ أَجْلِـــبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رِجْلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَ الأَوْلاَدِ وَ عِدْهُمْ وَ مَـــا يَعِـــدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾[4] أي عدهم الوعود الكاذبة و منّهم الأماني البعيدة، فلن أخلـــي بينك و بين أصحاء العقيدة و أقوياء العزيمة من عبادي المخلصين لـــيس لـــك علـــيهم سلطان، أما من تبعك فحسابك عليه عسير و لأملأن جهـــنم منـــك و ممـــن تبـــك أجمعين»[5].

---

[1] سورة البقرة، الآية 37
[2] سورة الحجر، الآيتان 38,37
[3] سورة الأعراف، الآية 16
[4] سورة الإسراء، الآية 64
[5] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 57

لقد ندم آدم و زوجه على فعلتهما، و تقبل الله توبتهما و أمرهما بقوله تعـــالى:

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِـــينٍ﴾[1]

و بهذا الهبوط إلى الأرض تكون قد أتيحت للإنسان فرصة ثانية ليبرهن على حسن نيتـــه و بذلك انتهى طور النعيم الخالص و الراحة التامة، و دخل طورا جديدا له فيه طريقان فإما هدى و إما ضلال، و هبط الآدميان إلى الأرض و بدأ نظام الحياة الجديدة يستكمل وجوده حينما تهيأت حواء لتستقبل أول زهرة في رياض الإنسانية و أول نفحـــة مـــن نفحات البشرية، و هي فلذات أكبادها لتمتلئ جوانـــب الأرض بســـلالتها تمشـــي في مناكبها و تأكل من رزق الله، فكان لها توأمين قابيل و أخته و هابيل و أخته.

و في الختام فانه مهما اطلعنا على هذه القصة و قرأناها من الكتب أو سمعناها على ألسنة البشر، مع التزام كل المهارات و الفنيات العالية للسرد فإنها لن تبلغ دقة و روعـــة السرد الإلهي فالبون شاسع و نحن نقرؤها من كتاب الله تعالى و في مواضع مختلفة منـــه و سنأخذ الآن بشيء من التفصيل الجوانب الفنية في القصة، و سأحاول قدر الإمكـــان تحليل منهجها الفني من شخصيات و أحداث و حوار و غيرها مـــن العناصـــر الفنيـــة الأخرى.

[1] سورة الأعراف، الآية 24

رابعا: الجانب الفني في القصة القرآنية:

إن القصة في القرآن تختلف عن غيرها في الوصف و الغرض،« أما مـــن حيـــث الوصف، فان القصة في القرآن الكريم صدق بكل كلمة فيها و بكل جملة من تراكيبـــها و غيرها من القصص المؤلفة من قبل البشر فلا يلتزم فيها ذلك، إذ يتخللها كثير ممـــا لا يطابق الواقع للحاجة إليه في ترويج أمر أو مبالغة في تصوير شيء، و أما مـــن حيـــث الغرض فان المقصد فيها يتصل بمقاصد القرآن الكريم التي هي في أعلى درجات الســـمو و الرفعة» [1].

لعله من الممكن القول بأن القرآن الكريم في قصصه كسائر الكلام في قصصه من حيث أنه لا بد فيه من التعرض لكل من الأشخاص الذين تدور حولهم القصة، و الحوار الذي يدور بينهم، و الحدث الذي تدور حوله القصة و شخصياتها و لقد عرض القصص القرآني لأحداث تاريخية مضى بها الزمن فهو مصدر تاريخي عظيم كما يوصـــف بأنـــه أصدق الحديث في كل ما أخبر به و يلاحظ على أن «القصة التاريخية في جميع عهودها تتغذى بالخيال الذي يلون الأحداث بغير ألوانها الحقيقية، أما القرآن فهو يعتاض عن ذلك

[1] بحوث في قصص القرآن، عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني -بيروت-، ط1، 1982، ص:53

الخيال بسحر بيانه و قوة أخذه و تصويره العجيب الذي أنطق القلوب القاسية بالشهادة الصادقة فقالوا: إن أعلاه لمثمر و إن أسفله لمغدق و إن له لحلاوة و إن عليه لطلاوة»[1].

فماذا يمكن القول عن العناصر الفنية في القصة القرآنية و ما ملامحها التي تميزها عن غيرها في قصص البشر؟

أ- رسم الشخصيات:

إن الشخص في القصص القرآني له مقاييسه الخاصة، و بتعبير آخر « إن الشخص في القصص القرآني لا يراد لذاته و إنما يورد فيه من الأشخاص نماذج موضحة في مجـــال الخير و الشر، و لهذا فليس شرطا و لا ضروريا تلاقي الشخصية مع مواقفها و أحداثها في معرض واحد بل إن الأمر يختلف باختلاف دواعي الفن في عظمة القرآن، إن ذلـــك هو الاتجاه في نفس الأحداث التي يتعرض القرآن لها في قصصه»[2].

و الواضح من هذا الرأي أن الشخص في قصص القرآن يمثل نموذجا حيا إما للخير أو الشر لا يراد لذاته، و من جهة أخرى ما يرد من أسماء الشخصـــيات و صـــفاتهم في قصص القرآن فيلاحظ أن القرآن الكريم يذكر من الأسماء ما تدعو إليه حاجة القصـــة حتى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع صورا حية تهز المشاعر في دائرة الشخصيات

[1] المرجع السابق، ص: 59
[2] المرجع نفسه، ص: 54

التي تدور حولها أحداث القصة و يتطلب ذلك في القصص القرآني بالذات أن تكـــون الأشخاص كائنة في الوجود و معروفة مستيقنة لكل من القارئ و السامع، فالقصة عند الكتاب تكون الشخصيات فيها من صنعهم و من بنات أفكارهم و خيالهم، و لقد ذكر القرآن الكريم في قصصه أسماء الأنبياء كما ذكر أسماء أعدائهم ممن تحدوا دعوة الســـماء و لهذا التأكيد البالغ لوجود الشخصيات التي ذكرها القصص القرآني بأسمائها أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها و في الأعمال التي تضاف إليها، حيث يرى المـــرء وحـــدة الحركة بين الشخصيات و الأعمال الصادرة عنها، و حيث لا تظهر للناظر شخصـــيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث بعد أن تبرز بأخذ مكانة في الوجود و من جهة أخرى فيما يتعلق بالشخصية دائما « فقد تكون هي الغاية الأساس و تسيطر على مناخ القصة بحركاتها أو من خلال استعراض الأحداث أو اســـتعراض الأحـــداث لمختلف جوانبها، و بهذا تكون الشخصية قطب الجذب»[1].

هذا باختصار شديد حول الشخصية في القرآن الكريم و أهم سماتها فيه و لننتقل إلى عنصر الحدث لمعرفة أهم ميزاته في قصة القرآن الكريم.

[1] المرجع السابق، ص: 66

ب- رسم الأحداث:

يعتبر الحدث عنصرا هاما في القصة و القصة القرآنية تحديـــدا إذ أن الأحـــداث القصصية في القرآن و تكرارها بالخصوص يعد من إعجاز القرآن العظيم تتجلى فيه روعة الكلمة و جلالها « بحيث لا يرى لها وجه في أية لغة و في أية صورة من صـــور البيـــان يقارب هذا الوجه»[1]، أيضا فان من جمال النظم القرآني أنه « ينقل المشـــاهد بجميـــع أبعادها و بأمانة و صدق و لكن على دفعات و لقطات حتى لا تتراكم و تتراكب، و إنما يوزعها و يباعد بين مواضعها بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة منها بذاتها مستغنية عـــن كل تفصيل»[2]، أضف إلى ذلك « إن الصور المختلفة التي يجيء بها القـــرآن للحادثـــة الواحدة اختلاف غاية تصوير ما توارد على النفس من خواطر و ما تردد من صور، أو يكون هذا الاختلاف في اللفظ ناشئا عن اختلاف الأحوال و المواقف و المشاهد»[3].

إن الأحداث الواردة في القصص القرآني تدور في الأساس حول الـــدعوة إلى الله و التوجه إلى وجهه الكريم، فإذا نظرنا إلى الأحداث على أنها محور القصص بـــاختلاف القصص الآخر وجدنا في كل حادثة قصة كاملة مهما تكرر ذكر الشخص فانه قد يبدو التصريح به أمر لا مندوحة منه« فالقرآن الكريم إذا ذكر قصة تتعلق ببعض الأشـــخاص

[1] المرجع السابق، ص: 54
[2] المرجع نفسه، ص: 56
[3] المرجع نفسه، ص: 56

كموسى عليه السلام مثلا و الظروف المحيطة به و الحوار معه و الحادث الـــذي وقـــع عنصرا في هذه القصة، تلمس أنه لا ينقل كل ما تلبس بها من قريب أو بعيد، و إنما يأخذ منها ما يكون له دلالة مقصودة و يركز على ناحية منها في مقام و على ناحية أخرى في مقام آخر، و تلك مزية في القرآن لا توجد في أي كتاب آخر سواء أكان سماويا أو غير سماوي»[1].

إذن فالقصة في القرآن تركز على ما له دلالة في أحداث القصة، و بتعبير آخر فان القصص القرآني يركز على الأهم و يترك القليل الأهمية، أو نقول انه لا يعير كبير اهتمام للتفاصيل و الجزيئات.

و مهما يكن فان للقصة القرآنية ألوانا في كل معرض لا نجد حيالهـــا إلا كـــل تشويق و إقبال و لا نحس في عرضها أدنى ملل فالأسلوب مختلف باختلاف الأغراض التي تستهدفها السورة، و تتجه إليها، فقصة النبي موسى عليه السلام مع فرعون في سورة طه غيرها في سورة الشعراء و غيرهما في سورة القصص.[2]

[1] المرجع السابق، ص: 59

[2] الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها و أسس بنائها، خالد أحمد أبو الجندي، دار الشهاب للطباعة و النشر –الجزائر–، ط1، دت، ص: 208

من جهة أخرى نجد أن القصص القرآني « يستعين علـــى تصـــوير الأحـــداث و إيضاح الأقاصيص بعاملين أساسيين في كل حدث من الأحداث سواء في ذلك قصص القرآن و غيره... إذ لا بد في كل شيء من ذلك من زمان و مكان»[1].

فالأحداث تخضع للتسلسل الزمني، إذ أنّ كلام رب العالمين لا يطيل في القصص كفعل القصاصين الذين يحرصون دائما على استجلاب الجماهير و إثارة عواطفهم أكثر من التركيز على ناحية العبرة« و لعنصر المكان في قصص القرآن حسابه أيضا، إذ هـــو أشبه بالوعاء للأحداث لأنها لا تقع فيه و هو ملموس كما تقع في الزمان و هو شـــيء موهوم على أن منزلة الزمان أقوى و أبلغ في تقدير بناء القصة و تركيبها، فان تأثيره في الحدث تأثير مباشر و إن لم يجر له ذكر في القصة»[2].

و هكذا يمكن القول بأنه للزمان و المكان أثرهما في بناء القصة و في إلباسها ثوبا من الواقع الذي يستعبد الناس و يجتذب إصغاءهم و انتباههم ثم إن الله تعالى يعرفنا إياه بقدر و في حد مقدور و ذلك مسلك دقيق و مجال رفيع تتجلى فيه دقة القرآن الكـــريم التي بلغ بها حد الإعجاز، و لا غرو فذلك أثر من آثار الصفتين الكريمتين لله ســـبحانه و تعالى، العلم و القدرة و أي علم في تلك الدقة و في ذلك التفصيل و التعمق العجيب و أي قدرة أشمل من قدرة خالق البشر و مالك جميع القوى، و ذلك معـــنى قـــول الله

[1] المرجع السابق، ص: 208
[2] المرجع نفسه، ص: 210

تعالى: ﴿ تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَ السَمَوَاتِ العُلَـى * الـرَّحْمَنُ عَلَـى العَـرْشِ اسْتَوَى ﴾[1].

أما عنصر الحوار فهو على العكس من ذلك كله في قصص القرآن و كيف يدار حواره و تقص حكاياته و تجري في الكلمات على ألسـنة الأبطـال و بـين شـفاه الشخصيات، فحين نقص بين يدي أحد مواقف القرآن في حواره القصصي نجد المشهد كله حاضرا مشخصا يملأ الأسماع و الأبصار، و يملأ حتما تلك الفجوات الواقعة عـادة بين ثنايا الحوار من غير تكلف « و من أمثل مزايا تلك الحركة المتنقلة بين أبعاد القصة في القرآن ملء الفراغات التي تكون عادة بين مقاطع الحوار و تقع أثناء المقاولة و المصاولة حتى يشعر القارئ أو السامع أو المشاهد بأنه يعيش فعلا مع أحداث القصة ينتقل مـع أشخاصها و يحاور أبطالها و يشفق لهم أو منهم أو عليهم، فلكل قصة فعلا موقـف أو مواقف تجتذب المتأمل و تندمج في سلك الهداية الرفيعة و الموعظة الحسنة»[2].

و من جهة أخرى نجد القصص القرآني الكريم « يحتفظ مع سعة أفقه بالصدق في مدلولاته و التحقيق لمعاني ألفاظه و عباراته و التثبت من مفاهيم أبطاله و شخصياته»[3].

---

[1] سورة طه، الآيتان 4، 5

[2] بحوث في قصص القرآن، عبد الحافظ عبد ربه، ص: 59

[3] المرجع نفسه، ص: 59

فالشخصيات في قصص القرآن –كما سبق الذكر– حقائق لها وجودها الـــذاتي و لها منطقها و سلوكها و لها مترعها و اتجاهها و لها كيانها أو بتعبير أدق « ليس وراءها يد تحركها أو مؤلف يضع الكلمات في الأفواه و يشد الشفاه بالعبارة و الحوار»[1].

إن المتأمل في قصص القرآن الكريم يتجلى له أن عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها التخويف و الإنذار و عنصر الأشخاص هـــو البـــارز في الأقاصيص التي يقصد منها الإفاضة و الإيحاء و التي تثبت قلب النبي و من معـــه، أمـــا عنصر الحوار هو البارز في الأقاصيص التي تهدف إلى الدفاع عن الدعوة.[2]

و في مجمل القول فان العناصر الفنية في القصة القرآنية لها مميزاتها الخاصة التي تنفرد بها، في حين نجد لها سمات أخرى في القصص المؤلفة من قبل البشر و هذا التميز الفريـــد لهذه العناصر الفنية من شخصيات و أحداث و حوار و غيرها في القصة القرآنية العظيمة يجعلها مصدرا أساسيا ينهل منه كتاب القصة و دارسوا هذا الفن.

و بعد هذا العرض البسيط لأهم سمات العناصر الفنية في القصص القرآني نتوجـــه الآن إلى تناول هذا الجانب الفني في قصة الخطيئة لمعرفة شخصياتها و أحـــداثها و أهـــم مميزات هذه العناصر فيها.

---

[1] المرجع السابق، ص: 60
[2] المرجع نفسه، ص: 75

و قد ذكرت الشخصيات بأسمائها و ذلك له أثره البعيد في الأحداث و الأعمال المشاركة فيها أو المضافة إليها، حيث نلمس جليا الوحدة بين الشخصـــية و الأعمـــال الصادرة عنها كسجود الملائكة و رفض إبليس هذا السجود، و زلل آدم و زوجـــه ثم توبتهما فلكل شخصية مترعها و كيانها الخاص، ليس وراءها يد تحركها.

من جهة أخرى يمكن أن نستشف ملامح هذه الشخصيات و صفاتها فالملائكـــة أجسام نورانية لا تأكل و لا تشرب و لا تتناسل، بل حياتها كلها عبادة و تسبيح لله عز و جل، إنها نموذج كامل للطهر و الصفاء و الطاعة المثالية لرب العالمين و الخضوع لـــه و لقد برز دورها في بداية القصة و في حوارها مع الله تعالى.

نأتي إلى شخصية محورية في القصة، و هو آدم عليه السلام و قد اجتمعـــت فيـــه صفات عديدة، فهو المخلوق المكرم من الله تعالى إذ جعل الملائكة تسجد له فكان رمزا للطيبة و الطهارة كيف لا و هو خليفة الله في أرضه و قبس من نـــوره و صـــنع يـــده سبحانه، و كان آدم في المقابل محبا لخالقه يخاف غضبه و عقابه كما نلمح أيضا صـــفتي النسيان و الضعف فيه و بهما عصى آدم ربه و خالف وعده ﴿**وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[1].

[1] سورة طه، الآية 115

و تعد حواء زوج آدم عليهما السلام شخصية مرافقة مصاحبة له، فهي أيضا تسير في خطين و هما: مثال الحب و الحنان و الأنس لزوجها من جهة و صفة الضعف و اتباع إغواء إبليس، فحواء شريكة لآدم في المعصية و التوبـــة و في الهبـــوط مـــن الجنـــة إلى الأرض.[1]

أما ما يمكن قوله عن إبليس فإننا نلمس جليا صفاته من القرآن الكريم فهو المتكبر اللاهث وراء الباطل و الشر الرافض لأمـــر ربـــه﴿ **أَبَـــى وَ اسْـــتَكْبَرَ وَ كَـــانَ مِـــنَ الكَافِرِينَ** ﴾[2] حيث وصفه المولى عز و جل بالكافر المستكبر فماذا بعد ذلـــك كمـــا نستشف صفات أخرى مهينة، إنها الأنانية و الجحود و النكران و الحقد و عمى البصيرة و ذلك في قوله:﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِنْه** ﴾[3]، و يعد إبليس شخصية محورية حيث الصراع يدور بين الخير و الشر.[4]

و في الأخير، و بعد هذا العرض المبسط حول شخصيات هذه القصة نلاحظ أنها حقائق لها وجودها الذاتي و لها منطقها الخاص بها لا يد تحركها و هذه سمة بـــارزة في الشخصيات القرآنية و ما ذكرته يعتبر تلخيصا مركزا لسمات الشخصية في قصـــة آدم عليه السلام، و فيما سيأتي نتعرض لسمات الأحداث و نتعرف على سيرها.

---

[1] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 58
[2] سورة البقرة، من الآية 34
[3] سورة الأعراف من الآية 12
[4] الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها و أسس بنائها، خالد أحمد أبو الجندي، ص: 219

إنّه لمن بديعة النظم القرآني أنه ينقل المشاهد و الأحداث لنا بجميع أبعادها مرتبة موزعة بدقة تدب فيها الحركة و الحياة و قد وردت قصة الخطيئة في سور عديدة من القرآن الكريم، فأسلوبها مختلف باختلاف السورة و نغمها و جرسها.

تبدأ قصة الإنسانية في القرآن الكريم بأول حدث و هو إخبار الله عز و جل الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة ثم محاورة الملائكة لربهم لإزالة دهشتهم و سؤالهم و يحدث بعد ذلك أن خلق الله تعالى آدم و تعليمه لأسماء الموجودات و قد ورد في سورة طه تفصيل لحدث خلق آدم و أن الله تعالى صنعه من طين و يمنحه بذلك تكريما عظيما و في مشهد آخر يخلق الله تعالى حواء و نفهم ذلك من لسياق القرآني دون تفصيل لهذا الحدث كيف و أين تم حدوثه، ثم يسكنهما الله تبارك و تعالى الجنة و يتمتعا بنعيمها و في هذه الأثناء الهادئة يتدخل إبليس الذي أغضب الله تعالى برفض أمر السجود ليفسد على الزوجين سعادتهما، و هنا يحدث أمر طارئ ثان –بعدما خرج الشيطان عن أمر ربه في بداية القصة– و هو وسوسة إبليس لآدم و زوجه إذ يلح عليهما في الأكل من الشجرة المنهي عنها و ينجح في ذلك، و تعتبر هذه الحادثة أساسية في تغيير مجرى باقي الأحداث، ثم يصور لنا القرآن الكريم مشهدا آخر بكل دقة و روعة إنها حادثة الأكل من الشجرة و إبداء سوءاتهما الحسية و يا لها من لحظة مؤلمة ليندفعا نحو أوراق الشجر

يغطيان جسديهما، و هنا نحس بتأزم الموقف لكن سرعان ما يتدارك آدم و زوجه هـــذا الخطأ و يتوب الله عليهما و يعاتبهما بقوله سبحانه: ﴿**أَلَـــمْ أَنْهَكُمَـــا عَـــنْ تِلْكُمَـــا الشَّجَرَةِ**﴾[1] لينفرج الموقف برحمة من الله وحده ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَـــابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[2].

لقد انفرج الموقف برحمة من الله عز و جل غمر بها عبده، لتستمر الأحداث بعد ذلك حيث يطلب إبليس الذي ظن أنه انتصر إرجاءه إلى يوم الدين و تأجيـــل عقابـــه النهائي، إذ أقسم لرب العزة أن يجر وراءه العدد الأكبر من بني البشر، ليجيب الله طلبـــه على أن يعاقبه هو و من معه يوم العرض الأكبر لتنتهي القصة بحادثة أخرى و هي أمر الله تعالى لآدم و زوجه بالهبوط إلى الأرض ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِـــي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[3].

إن هذه المشاهد القرآنية الكريمة لأحداث هذه القصة العظيمة ينقلها لنا القـــرآن الكريم بكل أبعادها، فما إن نتلو أو نسمع أحداثها حتى تتمثل أمام أعيننا حية تتحـــرك و تتفاعل فنذهب معها نحس بكل من فيها و الأحداث موزعة منظمة لا تراكم بينـــها

[1] سورة الأعراف، من الآية 22
[2] سورة البقرة' الآية 37
[3] سورة الأعراف، الآية 24

و لا تزاحم بل إن كل حادثة فيها تمثل قصة بحد ذاتها بعيدة كل البعد عن صفتي الإطالة و التفصيل و ذكر الجزئيات.

نتجه الآن إلى عنصرين أساسيين في القصص و هما الزمان و المكان فأحداث هذه القصة تخضع للتسلسل الزمني، إذ أن كلام رب العالمين لا إطالة فيه عكس ما نجـــده في كتابات القصاصين و الله تعالى يعرض الزمان و المكـــان في حـــد مقـــدور و واضـــح و للزمان و المكان أثر كبير في بناء القصة بحيث يجعلها واقعية هذه الأخيرة لها دور كبير في جذب الناس و التأثير فيهم.

لعله يمكن القول أن أحداث القصة بدأت عندما خلق الله تعـــالى آدم و شـــاءت إرادته سبحانه أن يكون خليفته في الأرض.

و الواضح من القصة أن الزمن القصير في بعض أحداثها موجود في مواضع مختلفة من القصة فمثلا حوار الله تعالى مع الملائكة لم يكن طويلا و لحظة سجود الملائكة لآدم و دخول الزوجين إلى الجنة و العيش فيها ليخرجا منها بعد المعصية نحو الأرض، كمـــا نجد لحظة ضعف آدم و عصيانه لم تدم طويلا في حين أن توبته تواصلت علـــى امتـــداد الزمن كله، و في حادثة كشف عوراتهما وقعت في زمن يسير فسرعان ما تداركا الموقف

بفعل الستر و في المقابل من كل هذا يمكن القول بأن عداوة الشيطان لبني البشر ممتدة إلى الأبد.

أما عنصر المكان في القصة فبعض أحداثها تجري على الأرض و في الجنة سكن الزوجان و تمتعا بنعيمها و فيها عصيا ربهما و في الجنة تبدت لهما سوءاتهما و سترا نفسيهما ليعودا بعد كل هذا إلى الأرض[1].

نشير الآن إلى عنصر الحوار في القصة فهو في مواضع مختلفة منها يبينها لنا السياق القرآني و البداية بحوار الله تعالى مع الملائكة إذ يقول عز من قائل: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[2]، و أجابت الملائكة متسائلة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَك** ﴾[3]، و جاء الجواب الإلهي: ﴿**قال إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون** ﴾[4]، و هنا علم الله تعالى آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة و قال جل شأنه: ﴿**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[5] فردت الملائكة في عجز ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ** ﴾[6].

---

[1] آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، ص: 55
[2] سورة البقرة، من الآية 30
[3] سورة البقرة من الآية 30
[4] سورة البقرة، من الآية 30
[5] سورة البقرة، من الآية 31
[6] سورة البقرة، الآية 32

إن هذا الحوار مليء بالصفاء و الصدق و الحب المتبادل المتدفق بين ثناياه انه حوار رقيق يحمل عظيم الرحمة و الحلم يشمل بها الله تعالى ملائكته ليعلمهم و يزيل حيرتهم.

و في موضع آخر من القصة نجد حوارا بين المولى سبحانه و إبليس الـذي بـرر رفضه للسجود بأنه مخلوق من نار و آدم مخلوق من طين قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِـنَ العَـالِينَ** ﴾[1]، فـرد إبليس: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[2]، و هنا تتوتر الأحداث و نلمس غضب الإله لينقطع الحوار ثم يستأنف بعد حادثة عصيان آدم و اعترافه بذنبـه ليحاور إبليس ربه طالبا منه البقاء ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْـوَيْتَنِي لأَقْعُـدَنَّ لَهُـمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[3]، فيجيبه الله عز و جل انك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم.

إن العناصر الفنية في قصص القرآن الكريم و ما تميزت به من الترتيب العجيـب و الدقة المتناهية و خلو من التفصيل و الإطالة و توحد بين الشخصيات و أعمالها و ذكر أسمائها الموجودة في الواقع و غير ذلك بالإضافة إلى لغة و أسلوب السرد الإلهي كلـها أمور اجتمعت في القصة فكانت في غاية الدقة و الروعة و بلغت من قوة التأثير و الحبك

[1] سورة ص، من الآية 75
[2] سورة ص، الآية 76
[3] سورة الأعراف، الآية 16

الملائكة- على سبيل التعجب و الاستعلام، كيف تستخلف هؤلاء و فيهم من يفسد في الأرض بارتكاب المعاصي ﴿ وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾[1]، أي يريق الدماء بالبغي و الاعتداء ﴿ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [2]، أي نتزهك عما لا يليق بك ﴿ وَ نُقَدِّسُ لَكَ ﴾[3]، أي نعظم أمرك و نطهر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون ﴾[4]، أي أعلم من المصالح ما هو خفي عليكم و لي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها ﴿ وَ عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[5]، أي أسماء المسميات كلها. قال ابن عباس: علمه اسم كل شيء حتى القصعة و المغرفة ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ ﴾[6]، أي عرض هذه المسميات على الملائكة و سألهم على سبيل التبكيت ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ ﴾[7]، أي أخبروني بأسماء هذه المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾[8]، أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفتهم و الحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة و خصه بالمعرفة التامة دونهم من معرفة الأسماء و الأشياء و الأجناس و اللغات، و لهذا اعترفوا بالعجز و القصور

[1] سورة البقرة، من الآية 30
[2] سورة البقرة، من الآية 30
[3] سورة البقرة، من الآية 30
[4] سورة البقرة، من الآية 30
[5] سورة البقرة، من الآية 31
[6] سورة البقرة، من الآية 31
[7] سورة البقرة، من الآية 31
[8] سورة البقرة، من الآية 31

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾[1]، أي نتزهك يا الله عن النقص ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ ﴾[2]، أي الذي لا تخفى عليه خافية ﴿الحَكِيمُ ﴾[3] الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾[4]، أي أعلمهم ما لم يعلموا ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾[5]، أي أخبرهم بكل الأشياء ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ ﴾[6]، قال تعالى ألم أنبئكم بأني أعلم غيب السموات و الأرض ﴿ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[7]، أي ما تظهرون و ما تسرون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم. روي أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة، و قالوا:ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه منه»[8].

و بهذا التفسير القرآني لآيات القصة تتضح لنا المعاني أكثر فأكثر و نأتي الآن إلى مواطن البلاغة فيها، « فأول ما نجد التغرض بعنوان الربوبية ﴿وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾[9] مع

---

[1] سورة البقرة، من الآية 32
[2] سورة البقرة، من الآية 32
[3] سورة البقرة، من الآية 32
[4] سورة البقرة، من الآية 32
[5] سورة البقرة، من الآية 33
[6] سورة البقرة، من الآية 33
[7] سورة البقرة، من الآية 33
[8] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج2، شركة الشهاب للتوزيع، الجزائر، ط5، 1990، ص: 52
[9] سورة البقرة، من الآية 30

الإضافة غلى الرسول عليه السلام للتشريف و التكريم لمقامه العظـــيم و تقـــديم الجـــار و المجرور "للملائكة" للاهتمام بما قدم و التشويق إلى ما أخر.

و انظر إلى قوله تقدست أسماؤه "أنبئوني" فهو أمر خرج عن حقيقته إلى التعجيز و التبكيت، كما نجد المجاز في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**﴾ فيه مجاز بالحذف و التقدير فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى، فتأمـــل قولـــه ســـبحانه ﴿**ثُـــمَّ عَرَضَهُمْ**﴾[1]، هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور و لو لم يغلب لقال "**ثُمَّ عَرَضَهَا**" أو عرضهن، كما نجد إبراز الفعل في قوله تعالى ﴿**إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْـــبَ السَمَوَاتِ**﴾[2]، ثم قال ﴿**وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**﴾[3]، للاهتمام بالخير و التنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء و يسمى هذا بالإطناب. و نجد في آخر هذه الآية مـــن علـــم البديع الطباق و ذلك في كلمتي "تبدون" و "تكتمون"، و في قوله تعالى: ﴿**وَ إِذْ قُلْنَـــا لِلمَلاَئِكَةِ اُسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَ إِسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الكَـــافِرِينَ**﴾ فانظر إلى كلمة "اسجدوا" أصل السجود الانحناء لمن يسجد له و التعظيم و هو في اللغة التذلل و الخضوع، و في الشرع وضع الجبهة على الأرض، أما كلمة "إبليس" فهـــي اسم للشيطان و هو أعجمي و قيل انه مشتق من الإبلاس و هو الإياس، أما معنى كلمة

[1] سورة البقرة، من الآية 31
[2] سورة البقرة، من الآية 33
[3] سورة البقرة، من الآية 33

"أبى" فهو امتنع و الإباء الامتناع مع التمكن من الفعل أما "استكبر" فالاستكبار التكبر و التعاظم في النفس. و نستكما ذكر الآيات ﴿ **وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجَنَّةَ وَ كُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ فالرغد في قوله "رغدا" العيش الرغيد الواسع لا عناء فيه، أما قوله تعالى ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾[1] فالزلل و هو عثور القدم يقال زلت قدمه أي زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازا يقال زل الرجل إذا أخطأ و أتى ما ليس له إتيانه و أزله غيره إذا سبب له ذلك أما المعنى في قوله تعالى ﴿ **وَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾[2] فالمستقر موضع استقرار و المتاع ما يتمتع به من المأكول و المشروب و الملبوس و نحوه و كلمة فتلقى التلقي في الأصل الاستقبال تقول: خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم ثم استعمل في أخذ الشيء و قبوله تقول: تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها و قبلتها، أما قوله تعالى ﴿ **فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[3]، فتاب التوبة في أصل اللغة الرجوع و إذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية و إذا عديت بعلى كان معناها قبول التوبة، و نرى في قوله تعالى ﴿**وَ قُلْنَا اهْبِطُوا** ﴾[4] تكرار الأمر بالهبوط للتأكيد و لبيان أن إقامة آدم و ذريته في الأرض لا في الجنة، و في قوله تعالى و "إذ قلنا"

[1] سورة البقرة، من الآية 36
[2] سورة البقرة، من الآية 36
[3] سورة البقرة، من الآية 37
[4] سورة البقرة، من الآية 38

صيغة جمع المراد بها التعظيم و هي معطوفة على قوله "و إذ قال ربك" و فيه إلتفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة و إظهار الجلالة، أما كلمة فسجدوا أفادت الفاء أنهم سارعوا في الامتثال و لم يتثبطوا فيه و في الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له و كذلك أتى مفعوله محذوف أي أبى السجود ثم نجد قوله ﴿وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[1] المنهي عنه هو الأكل من ثمارها و تعليق النهي بالقرب منها و لا تقربا لقصد المبالغة عن النهي عن الأكل إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿وَ لاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾[2]، فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه، و في قوله تعالى أيضا ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[3]، فقوله مما كانا فيه أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من النعيم أو الجنة فان من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ منهم نحو مما كانا فيه لتذهب نفس السامع في تصور عظمته و كماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه، أما عبارة التواب الرحيم من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة»[4].

أما عن ورود القصة في سورة الأعراف فبالرغم من أنها نفسها إلا أنك عند قراءتها تحس بأنك تلتقيها أول مرة، «فانظر قوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ

[1] سورة البقرة، من الآية 35
[2] سورة الاسراء، من الآية 32
[3] سورة البقرة، من الآية 36
[4] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج2، ص: 55

الجَنَّةَ ﴾[1]، فقوله يا آدم فيه إيجاز بالحذف أي و قلنا يا آدم،﴿ وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾[2] عبر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها ثم قوله عز و جل: ﴿ وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِين ﴾[3]، أكد الخبر بالقسم و بإن و لام لدفع شبهة الكذب و هو من الضرب الذي يسمى إنكاريا لأن السامع متردد، كما نجد الطباق في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُون ﴾[4] و هكذا»[5].

أما في سورة طه فقد جاءت القصة بأسلوب آخر منقطع النظير لا يدخل منه ملل و لا سأم فانظر قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَ لاَ تَعْرَى وَ أَنَّكَ لاَ تَظْمَأ فِيهَا وَ لاَ تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَ مُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ فلنتأمل هذا السياق الإلهي و السجع اللطيف غير المتكلف مثل "تشقى تعرى، تضحى"، إلى آخره و « هذه الآية الكريمة بها سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير و ذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع و الضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب و الغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم و تصنيفها و لو قرن بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة

---

[1] سورة البقرة، من الآية 35
[2] سورة البقرة، من الآية 35
[3] سورة الأعراف، الآية 21
[4] سورة الأعراف، من الآية 25
[5] صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج2، ص: 55

واحدة على أن في الآية سرا آخر و هو قصد التناسب و لو قرن الظمؤ بالجوع لانتشر سلك رؤوس الآي»[1].

و خلاصة أقول أن هذه تفسيرات قرآنية موجزة لبعض الآيات التي وردت فيها القصة إذ ليس المقام مقام إسهاب لتفسير القصة في مختلف السور الواردة فيها و التفسير ها هنا له دور كبير في توضيح المعاني العميقة السامية فيها معان ساقها المولى عز و جل في طريقة نظم يعجز الإنس و الجن عن مجاراتها ذلك ما سيتبين لنا أكثر من خلال الحديث عن جمال الأسلوب في القصة الذي لا ينفصل عن نظمها.

يقول عز من قائل: ﴿ **وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾.

هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف تضمنت خطابا موجها من الملأ الأعلى إلى آدم و زوجته "أنت و زوجك" يأمرهما فيه أن يسكنا الجنة و يأكلا من ثمارها لينتهي السياق بالنهي عن الاقتراب من الشجرة أو يكونا من المغضوب عليهم ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب بالإنذار و الوعيد و سوء العاقبة فتكونا من الظالمين.

و مما يلاحظ من خلال السياق القرآني في الآية السابقة الذكر كذلك أن الخطاب جمع الاثنين آدم و زوجته عليهما السلام و ذلك ما يتضح من خلال الكلمات التي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان كلية الآداب و العلوم الإنسانية

[1] المرجع السابق، ص: 56

جاءت بصيغة المثنى فاشتركت حواء مع زوجها آدم في التبعة "فكلا"، لا تقربا تكونا لكنهما استسلما لوسوسة الشيطان ليقعا بذلك في المحظور —الأكل من الشجرة- ليبدي لهما سوءاتهما و سنعلم من السياق أنها سوءات حسية جسدية هذا ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَاكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾.

إن كل لفظة من هذا الآي الكريم تحمل مدلولا عميقا فمثلا قوله تعالى: ﴿**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ فيها إيحاء بتزولهما إلى مرتبة الدنيا بعد المعصية، أيضا لفظة يخصفان توحي بأن العورات هي عورات يخجل الإنسان فطرة من تعريها.

و لنمعن النظر أيضا في قوله عز و جل: ﴿**وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَاكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ**﴾، إلى آخر الآية، لقد سمعا هذا العتاب و التأنيب من ربهما على المعصية و إغفال النصيحة أما كيف كان النداء و كيف سمعاه فهو كما خاطبهما أول مرة و كما خاطب الملائكة ثم إبليس -كما جاء ذكر ذلك سابقا- كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع و أن الله تعالى يفعل ما يشاء و مما يخبرنا السياق أن هذا النداء العلوي يكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد انه يخطئ و ينسى لأن فيه ضعفا

يدخل الشيطان منه كما حدث لآدم و زوجه و هناك خاصية أخرى تتجلى من خـلال عبارات الآية القرآنية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَـابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ هنا إجمال و هو إبهام في حقيقة الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه ثم يزول الإبهام و يتضح الجمال لما استبان المقصود بالكلمات و ذلك بقوله تعالى: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا و إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَـا وَ تَرْحَمْنَـا لَنَكُـونَنَّ مِـنَ الخَاسِرِينَ**﴾[1]، هذه الكلمات وردت على لسان آدم و زوجه ليتوب الله تعالى عليهما إنه الندم و طلب المغفرة و الرحمة من رب العزة و إلا فهي الخسارة الكبرى و قد جاءت مؤكدة بنون التوكيد في لفظة لنكونن و كما لاحظنا من بداية الآيات إلى نهايتـها أن السياق جمع الاثنين آدم و زوجته.

و في الأخير نقول إن روعة الأسلوب الرباني متجلية في كل آي القرآن الكـريم و القصة القرآنية التي بين أيدينا نموذج لذلك و فيما سيأتي عرض لجانب النظم في القصة هذا النظم الذي أخرجه الجرجاني في نظريته و في تحليلات نظم هذه القصـة سـيكون واضحا كلام و تطبيقات الزمخشري (ت 538 هـ) الذي يعد بحق الصـورة المثلـى لنظرية الجرجاني.

[1] سورة الأعراف، الآية 23

يقول أحد المؤلفين حول ما جاء به الجرجاني « أن الأصول البلاغية التي قررهـا الجرجاني كانت منكورة أو قلقة بين معاصريه و لذلك كان يشكو كثيرا من جهل الناس لما يقول و عجزهم عن استيعابه و تمثله فأتاحت تطبيقات الزمخشري لها قوة و مكانـة و ثبتها في البيئة العلمية و أظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القـرآن في صورة دقيقة و شاملة فكان ذلك تأصيلا لهذه الأصول أي تأصيل»[1].

من هنا نلمح جليا أهمية تفسيرات الزمخشري لما جاء به الجرجاني فالمتأمل لكتاب الكشاف يرى أن مؤلفه يذكر النظم و علم محاسن النظم و تجاوب النظم كما يذكر علم المعاني و علماءه و كذا علم البيان و كثيرا من الأمور البلاغية مـن مجـاز و اسـتعارة و غيرها، و جهد الزمخشري تائه في تفسيره.

و الزمخشري يجتهد كما قلنا في توضيح ما في اللفظ القرآني من تلويحات يبـث الحذر و الإشفاق بها في قلوب المؤمنين حتى تستقيم أنفسهم على الجادة و اللفظ القرآني غني بهذه الإيحاءات لأنه كتاب تهذيب و تقويم طريقته في ذلك هي النفـاذ إلى الـنفس البشرية و قيادتها و إقامتها قيمة على نفسها و طريقة التلويح و الإيحاء طريقة لا تخطئ في النفاذ إلى النفس و إيقاظها و التأثير فيها يقول الزمخشري في قوله سبحانه ﴿**وَ عَصَى آدَمُ**

[1] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية، محمد محمد أبو موسى، دار التضامن -القاهرة-، ط2، 1982، ص: 38,37

رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[1]، « و بهذا الإطلاق و التصريح و حيث لم يقل و زل آدم و أخطأ و ما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات و الفرطات، فيه لطف بالمكلفين و مزجرة بليغة و موعظة كافة و كأنه قيل لهم انظروا و اعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة و بهذا اللفظ الشنيع فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات و الصغائر فضلا أن يجسروا على التورط في الكبائر و من هذا تعليل القرآن عقاب الكافرين لما هو أعم من السبب الحقيقي لهذا العقاب فالذين استكبروا عن آيات الله لا يدخلون الجنة لعنادهم و القرآن لا يعلل حرمانهم من الجنة بهذه العلة الحقيقية و إنما يقول: ﴿إِنَّ الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ ﴾[2]، فيعلل هذا الخلود في النار لإجرام و الإجرام عام يشمل التكذيب و الاستكبار و غير ذلك من الذنوب»[3] و الزمخشري يلوح لهم «يفصح عن سر العقول إلى لفظ الإجرام و كيف يلوح لهم بهذا اللفظ « فقد قال نجزي الظالمين

[1] سورة طه، من الآية 121
[2] سورة الأعراف، الآية 40
[3] الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة -لبنان-، د ط، د ت، ج4، ص: 224

ليؤذن بأن الإجرام الموصول إلى العقاب و أن كل من أجرم عوقب و قد كرره فقـــال و كذلك نجزي الظالمين»[1].

ثم يفسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَ إِنَّ عَلَيْـــكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ﴾[2]، قال الزمخشري « و يوم الدين و يوم يبعثون و يوم الوقـــت المعلوم في معنى واحد و لكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة المبالغة و قـــد نلحظ فروقا بين الكلمات الثلاث المضافة إلى اليوم فان يوم الدين يشير إلى مـــا يلاقيـــه إبليس من الجزاء على معصيته و تمرده و هذه الإشارة لا تجدها في الكلمتين الأخيرتـــين و إنما نراها في كلمة الدين و يوم يبعثون يشير إلى طلب أقصى المدة فـــإبليس يطلـــب الإنظار إلى يوم البعث لا إلى يوم تقوم الساعة و يوم الوقت المعلوم فيه نبرة تهديد»[3].

و قد اشتملت آيات القصة في موضع من سورة طه على أسلوب النفي الذي قد يعمد البليغ فيه إلى نفي نقيض الشيء قصد إثباته و في هذه الطريقة يدرك الزمخشـــري لطائف لها وقع و لها نفاذ. يقول الزمخشري في هذا الصدد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَ لاَ تَعْرَى وَ أَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُ فِيهَا وَ لاَ تَضْحَى﴾ « الشبع و الري و الكسوة

[1] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد محمد أبو موسى، ص: 255
[2] سورة ص، من الآية 77 الى 81
[3] البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص: 255

و الكن هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكره استجماعها له في الجنـة و أنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف و لا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلـك أهل الدنيا و ذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع و العري و الضمأ و الضحوة ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامى سبب الوقـع فيهـا كراهة»[1].

هذا عن النفي و مدى أثره في إصابة دقة المعنى. و يمضي الزمخشري في تحليل أصـناف النظم الواردة في آيات القرآن، و نحن يهمنا هذه القصة القرآنية و يتحدث عن تكـرار القصة في مواضع من القرآن فيقول في هذا الشأن:« و كذلك تكرار الأنبياء و القصص في أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسـية في كل أوان»[2].

و يبدو جليا من النص أن تكرار القصص في القرآن نوع من أنـواع التحـدي البلاغي، فقد أشار إلى الإعجاز البين في وقوع كلمات القرآن مواقعها و عرض آيـات كثيرة يشير فيها إلى هذه البلاغة الفائقة ثم دعا إلى النظر في سورة تامة و التعرف علـى التصرف في قصصها على هذه الشاكلة الفريدة التي جاءت عليها قصص القرآن، تكون كما ذكر الزمخشري حاضرة غير منسية في كل أوان و مثال قصة آدم عليه السلام واضح

[1] المرجع السابق، ص: 386
[2] الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4، ص: 249

في كتاب الله فقد اختلف ورودها ما بين سورة البقرة و الأعـــراف و طـــه و الحجـــر و مواضع أخرى لكل منها روعته و براعته المنقطعة النظير.

و نمضي أكثر فأكثر لنضرب أمثلة عن صور النظم في قصتنا. ففي قوله سبحانه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِـــكَ خَيْرٌ**﴾ [1]، يعلق الزمخشري قائلا عن هذه الآية: « و هذه الآيـــة واردة علـــى ســـبيل الاستطراد عقب ذكر بدء السوءات و خصف الورق عليها إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس لما في العري و كشف العورة من المهانة و الفضيحة و إشعارا بأن الســـتر بـــاب عظيم من أبواب التقوى»[2].

و نرى هنا أن صفة العري دعوة إبليس لكشف العورات، فبعـــد أن كـــان آدم و زوجه مستوران بنور عظيم لا أحد يرى عورة الآخر جاء إبليس ليزيل عنهما هـــذا الستر. و للزمخشري حديث عن الطباق أحد المحسنات البديعية التي ذكرت بعضها آنفـــا فهو يعرف الطباق بقوله « و قد يذكر الطباق و يراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها فالكلام المطابق هو الذي تتنزل فيه الأحوال على وقف المعاني، يقول في قوله تعالى﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ**

[1] سورة الأعراف، من الآية 26
[2] الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4، ص: 253

حَمْلاً خَفِيفًا ﴾[1]، و قال "ليسكن" فذكر بعدما أنث في قوله (منها زوجها) ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم و لأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى و يتغشـــاها فكان التذكير أحسن طبقا للمعنى»[2]، فبالدقة أو سمو هذه المعاني المرتبطة فيما بينها أشد ارتباط و في موضع آخر، يلمس الزمخشري، دقة نظم كلمة "أذاقها" في سياق العبـــارة القرآنية التالية: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَ الخَوْفِ ﴾[3]، يقول: « الإذاقـــة جـــرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا الشدائد، و ما يمس الناس منها فيقولـــون: ذاق فلان البؤس و الضر، و أذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضر و الألم بما يدرك مـــن طعم المر الشبع، فان قيل: الترشيح أبلغ من التجريد فهلا قيل: فكساها الله لباس الجوع و الخوف؟ قلنا: لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير لمـــس فكـــان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة»[4].

بعد هذا نعرج إلى باب مهم وقف عنده الجرجاني بإسهاب، كيف لا و هو يعد التقديم من شجاعة العربية، و نحن إذ نلمس التقديم في النظم القرآني لنعـــرف أســـراره و نقف على مزاياه سنعرف ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِـــبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ «فقد يأتي التقديم بغرض الدلالـــة

[1] سورة الأعراف، من الآية 189
[2] الكشاف، الزمخشري، ج2، ص: 145
[3] سورة النحل، من الآية 112
[4] الكشاف، الزمخشري، ج2، ص: 620

و التنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر و ليس نعتا ففي هذه الآية الكريمة دل تقـــديم الجار و المجرور على أنه خبر لقوله مستقر و لو تأخر لقيل و مســـتقر لكـــم في الأرض لتوهم متوهم أنه وصف لمستقر و أن الخبر قوله في الأرض إذ تحتاج النكرة إلى الوصف حتى يكون مسوغا للابتداء بها و لذا جاء التقديم للدلالة و التنبيه من أول الأمر على أن المقدم خبر و ليس نعتا»[1].

هذا عن التقديم و قد جاء في موضع آخر من قصة الخطيئة ما يعـــرف بالإســـناد و الذي نال حظه الكبير من اهتمام الجرجاني، و «الإسناد هو ضم كلمـــة إلى كلمـــة الإفادة معنى و هذا الضم يكون إما على وجه الحقيقة كقولنا: صام المسلم، خلـــق الله فالإسناد في هذه الجمل حقيقي حيث أسند الخلق إلى الله تعالى و هو عز و جل علـــى الحقيقة و موجده و إما على وجه المجاز كقولنا: صام النهار و صار الطريق حيـــث أسند الصيام إلى النهار و النهار زمان يقع فيه الفعل في هذه الجمل لم يسند إلى فاعلـــه الحقيقي و إنما إلى ملابس له و مما أسند فيه الفعل إلى السبب قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةْ فَتَشْقَى** ﴾، حيث أسند الإخراج إلى إبليس و هو سببه و يشعر الإسناد إلى السبب هنا بمدى نزغ الشيطان و وسوســـته و تربصه ببني آدم و قعوده لهم كما يشعر أيضا بما ينبغي على بني آدم اتجاه نزغ الشيطان

[1] البلاغة القرآنية في كشاف الزمخشري، محمد محمد أبو موسى، ص: 390

و همزه و لمزه ﴿وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [1]. فالواجب على المؤمن الاستعانة بالله دائما من الشيطان الرجيم و أن يحذر إغواءه فانه عدو مبين»[2]، و لذا جاء في أول هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ﴾[3].

أما فيما يخص أسلوب النداء فقد جاء في قوله تعالى يا آدم « فحرف النداء في النظم القرآني لم يرد سوى يا خاصة و الغاية من النداء القرآني أن ينتبه المنادى فيصغي إلى ما يلقى إليه لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامر و نواه و عظات و زواجر و وعيد و نحو ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام و معان ينبغي أن يتيقظوا لها و يميلوا بقلوبهم و بصائرهم إليها»[4].

إن الجملة تتكون من ألفاظ يضم بعضها إلى بعض وفق أسس و ضوابط و يتكون الكلام من جمل يتصل بعضها ببعض و تتشابك و تتلاحم، هذا التشابك و ذاك الكلام له ضوابط و له أسس و أصول ينبغي الاحاطة بها و التنبه لها و عندما نمعن النظر في مفردات الجملة في القرآن الكريم و نتأمل كيف يتم الربط بينها و ننظر بوعي في العلاقات بين الجمل و نتأمل كيف تتلاقى، يتجلى لنا العديد من الأسرار و المزايا

[1] سورة المؤمنون الآيتان 97، 98
[2] من بلاغة النظم القرآني، بسيوني عبد الفتاح فيوم، مطبعة الحسين الإسلامية، ط1، 1992، ص: 99
[3] سورة طه، من الآية 117
[4] من بلاغة النظم القرآني، بسيوني عبد الفتاح، ص: 234

و اللطائف التي تكن وراء نظم المفردات و الجمل في آيات الذكر الحكيم[1]، فتأمل قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْـكٍ لاَ يَبْلَى﴾، «تجد أن جملة قال يا آدم هل أدلك قد بينت الجملـة الأولى فوسـوس إليـه الشيطان ففي هذه الجملة خفاء و إبهام تتطلع النفس إلى إيضاحه و بيانه، و قد جـاءت الجملة الثانية موضحة مبينة لذلك، فهي مرتبطة بالجملة الأولى ارتباط عطـف البيـان بالمعطوف عليه و هذا الارتباط يمنع الوصل بالواو و بهذا يتبين لنا أنه لكي تدرك الارتباط بين الجمل لا بد من الاحاطة بالسياق و الوقوف على قرائن أحواله فان بنـاء الجمـل و معرفة كيفية التلاقي بينها تابع للمقام و متوقف على الغرض المسوق له الكلام»[2].

و في نهاية المطاف يمكننا القول أن جمال روعة النظم في سور و آيـات القـرآن الكريم و كذا عباراتها و تراكيبها تمثل ميزات الخطاب الرباني و الذي يمتلأ رونقا و جمالا لا نظير له و مما لا شك فيه أيضا«أن العبارة القرآنية لها نسق و جرس تعرفه الأذن و لها هيئة تركيبية و ألفاظ خاصة»[3].

إن النظم القرآني فوق طاقة القلم و اللسان و فوق طاقة البشر ككل و ما أكثـر النماذج الدالة على ذلك و ما قصة الخطيئة إلا واحدة منها جاءت مشاهدها متلاحمـة

---

[1] المرجع السابق، ص: 234
[2] المرجع نفسه، ص: 370
[3] الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها و أسس بنائها، خالد أحمد أبو الجندي، ص: 219

على طريقة أسلوب النظم القرآني الذي يعد مدرسة أنشأت علماء و لا زالت ممن اتخذوا من كلام الله تعالى دستورهم و منهجهم في البحث و الكشف عن أسراره و جـــواهره و ما فعله الجرجاني يعد بحق تمثيلا دقيقا لتحليل الكلام الرباني و نظمه –كما رأينا ذلك من خلال نظم هذه القصة الكريمة– فعلمنا ما الغرض من النداء هنا و ما روعة التقديم أو التأخير هناك و موضع الإسناد في بعض الجمل و غير ذلك من أمور النحو و البلاغة.

و نستطيع القول جازمين أن القصة القرآنية نظم نظم بكل ما فيها مـــن ألفـــاظ و حروف و عبارات كلها جاءت في موضع معين أو أسندت إلى أخرى وفـــق قـــانون النحو و أخرى غابت ليكون في غيابها أبلغ تأثير و أقوى دلالة إضافة إلى عناصر القصة فسير الأحداث و عمل الشخصيات و الحوار بينها و غيرها في قصة القرآن لها أعظـــم الأثر و بالغ النظم فالتحم نظم العبارات و العناصر الفنية للقصة ليمنحنا الله عز و جـــل صورة عظيمة من النظم في القرآن الكريم.

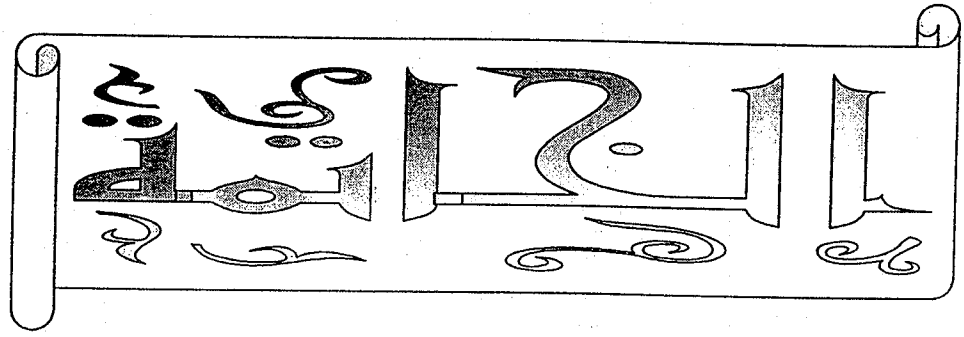
الخاتمة

إنّ الثابت في الدراسات اللغوية و الأدبية هو تحليل الكلام و استجلاء معانيه و جماله، و من المؤكد أن العلماء العرب من القدماء و المحدثين قد وقفوا عند كلام الله سبحانه و تعالى وقفات تأمل و دراسة قصد استخراج دُرره و مكنوناته و قد استبطنوا من أنفسهم أدق الوسائل و أحكمها ذلك لأنهم كانوا يحرصون على أمرين هامين:

- الأول: أن لا يفوتهم معنى من معاني كلام الله تعالى فلا يستخرجونه.

- الثاني: أن لا يستخرجوا من كلام الله عز و جل غير مراده.

و المراد من وراء هذا هو أن في فوات الأولى نقص يلحق الشريعة و في فوات الثانية دخول ما ليس من شرع الله، و هذان أمران محظوران كل الحظر★ .

لهذا نجدهم قد أحكموا وسائله البلاغية و اللغوية، فراجعوا و دققوا حتى استيقنوا. القارئ لدلائل الإعجاز و أسرار البلاغة أو بيان إعجاز القرآن للخطابي أو مؤلفات الباقلاني —و ليس هنا مجال الحصر– لا يسعه إلا أن يشكر جهود هؤلاء العمالقة الأفذاذ في خدمة الدرس اللغوي البياني في القرآن الكريم.

★ الاعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، ص: 120

و من باب العدل و الإنصاف نقول إن الجرجاني كان رائدا بلا منازع بنظريته اللغوية التي أثرت تأثيرا كبيرا في بناء صرح البلاغة و النقد الأدبي العربي و ما تزال مصدرا أساسيا للدراسات اللغوية و الأدبية الحديثة و المعاصرة.

و مهما يكن، فقد انتهيت من بحثي هذا ببعض الملاحظات و لا أقول نتائج جعلتها على شكل نقاط لعلها تفيد الباحثين بعدي:

- إن أوضح وجوه الإعجاز في القرآن الكريم و أولاها هو الإعجاز البياني.
- اهتمام القدماء باللفظة القرآنية و بأساليبها الرائعة.
- انشغال القدماء بالرد على الطاعنين في القرآن الكريم من سوء التأليف و التكرار و غيرها من الظواهر اللغوية.
- إجراء الموازنات بين اللفظ المستعار في القرآن و اللفظ البشري البديل.
- إبراز سمو التعبير القرآني و دقته و نظامه.
- عمل الجرجاني على رد البلاغة و الإعجاز إلى النظم من خلال شروحاته الوافية و الدقيقة و تطبيقاته الواسعة لنظرية النظم.
- فكرة النظم عنده تقوم على معرفة النحو و ما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتجددة و بهذا يكون الجديد عنده هو استخدام معاني النحو استخداما بيانيا.

- عند عبد القاهر الجرجاني لا فصل بين الكلام و محتواه و لا بين الصورة و مغزاها.

- يقرر أن البلاغة في النظم لا في الكلم المفردة.

- يدعو إلى توخي معاني النحو و أحكامه و فروقه.

- يتلاقى معه النقاد القدماء و المحدثون في أن اللفظ رمز لمعناه.

- عمل عبد القاهر على التمييز بين العلم باللغة و ما يجب أن يصنعه بها المتكلم كوسيلة أو أداة داعيا المستعمل إلى معرفة القصد أو الغرض الذي يحدده و يختاره.

- التركيز على ظاهرة الترابط و النظام التي يتطلبها النظام اللغـــوي و تحـــدث بـــإرادة المتكلم.

- الكلمة بمفردها لا فائدة لها و لا جمال و لا قبح فيها إلا بضمها إلى أخواتها التي تكون مجموع الكلم أو البناء.

- الدعوة إلى مراعاة التغييرات التي تقع في الجملة من تقديم و تأخير مـــن موضـــع إلى موضع و ما يترتب عنها من تغير جوهري في المعنى الذي تنجم عنه تحولات قواعدية.

و في الأخير يظهر جليا بأن عبد القاهر الجرجاني كان من أبرز المجددين في مناهج الدراسة اللغوية و الأدبية بنظرية النظم التي تتسم بالاتســـاع و الشـــمولية و معالجتـــها للخطاب الأدبي بقطبيه الشعري و النثري مع احتواءها للقاعدة النحوية و النظرة البيانية.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، دت.
- إعجاز القرآن للباقلاني، دار المعارف -مصر-، ط4، دت.
- آدم و التكوين، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني -بيروت-، دط 1980.
- الاعجاز في دراسات السابقين، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة -لبنان- ط1 دت.
- الأدب الصغير، عبد الله بن المقفع، مكتبة الحياة، ط1، دت.
- الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل، دار الفكر-القاهرة- ط3 1974.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري و أثرها في الدراسات البلاغية، محمد محمد أبو موسى، دار التضامن -القاهرة-، ط2، 1982.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ج3.
- البيان و التبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي-القاهرة- مصر، ط3، 1968.
- بيان إعجاز القرآن للخطابي، تحقيق عبد الله الصديق، طبعة دار التأليف -القاهرة-، طبعة 1، 1953.
- بحوث في قصص القرآن، عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني -بيروت- ط 1، 1982.
- بذور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم، رمضان كريب، دار الغرب للنشر و التوزيع، ط1، د ت.

- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق –مصر–، ط7، 1982.
- التفكير النقدي عند العرب، عيسى علي العاكوب، دار الفكر المعاصر –بيروت–، ط1، 1997.
- الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها و أسس بنائها، خالد أحمد أبو جندي دار الشهاب للطباعة و النشر –الجزائر–، ط1، دت.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق هارون، دار التراث العربي –بيروت–، ط3، 1986.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب –بيروت–، ط3، 1973.
- خصائص العربية و الإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، أحمد شامية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، دت.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، سلسلة الأنيس، ط1 1996.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق و شرح محمد عبد المنعم الخفاجي مكتبة القاهرة –مصر–، ط1، 1969.
- ديوان النابغة الذبياني، جمع و تعليق محمد الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع –الجزائر–، ط1، 1976.
- الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام دار المعارف –مصر–، ط2، 1968.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية، عز الدين اسماعيل، دار العودة –بيروت–، ط3، 1981.
- الصناعتين، أبو هلال العسكري، دار النشر –الجزائر–، ط1، دت.

❖ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ج2، شركة الشهاب للتوزيع –الجزائر– ط5، 1990.

❖ الصورة الفنية في القرآن الكريم، دكتوراه الأستاذ محمد طول، إشراف د. رضوان النجار، تلمسان، 1995.

❖ الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي، جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة و النشر –القاهرة–، ط1، 1974.

❖ الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس –بيروت–، ط3، 1983.

❖ العمدة في محاسن الشعر و آدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد القرقزان، دار المعرفة –بيروت–، ط1، دت.

❖ القصص القرآني إيحاؤه و نفحاته، فضل حسن عباس، شركة الشهاب للنشر و التوزيع –الجزائر–، ط1، 1989.

❖ الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4، الزمخشري دار المعرفة –لبنان–، ط1، دت.

❖ لسان العرب، ابن منظور، عالم الكتب –بيروت–، ط1، دت.

❖ لغة الشعر العربي الحديث،مفهوماتها الفنية و طاقاتها الإبداعية، سعيد الورقي، الهيئة المصرية العامة، ط1، 1979.

❖ المرأة و الأسرة في حضارات الشعوب و أنظمتها، عبد الهادي عباس، دار الأطلس، ط1، 1987.

❖ الموجز في شرح دلائل الإعجاز، جعفر دك الباب، مطبعة الجليل –دمشق–، ط1 1980.

❖ مقدمة لدراسة الصورة الفنية، نعيم اليافي، مطبعة وزارة الثقافة و الارشاد القومي –دمشق–، ط1، 1982.

الفصل الثاني: النظم في قصة آدم عليه السلام (88-138)

أولا: القصة القرآنية.....88

ثانيا: مفهوم التصوير الفني في القصة القرآنية.....89

ثالثا: قصة الخطيئة.....94

رابعا: الجانب الفني في القصة القرآنية.....103

أ- رسم الشخصيات.....104

ب- رسم الأحداث.....106

ج- المكان و الزمان.....108

د- الحوار.....109

خامسا: الجانب الفني في قصة الخطيئة.....111

سادسا: الجانب النظمي في قصة الخطيئة.....119

الخاتـــمة.....140

قائمة المصادر و المراجع.....145

فهرس الموضوعات.....149